مجلة كلية الآداب (دورية أكاديمية علمية محكمة)

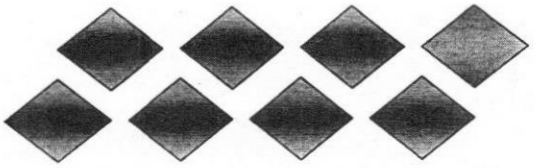

هل العربيـــة الفصحى لغة طبيعية ؟

د . مصطفي محمد إسماعيل وتيد

مدرس العلوم اللغوية بقسم اللغة العربيـــة

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

فـــرع دمنهور

ملخص في حـدود ٢٠٠ كلمة

إن هذا البحث وعنوانـه (هل العربية الفصحى لغة طبيعية ؟) يهدف إلـى مناقشة فكرة أثارها غير قليل من الباحثين المستشرقين والعرب جميعا ، مفادهـا أن العربية الفصحى كانت لغة نموذجية أدبية ، ولم تكن لغة حية مـنطوقة على ألسنة الناس في محاوراتهم ومختلف شؤونهم ، أي أنها لم تكن لغة طبيعية وفق مفهوم علماء اللغة المحدثين .

هذا وقد اشتمل البحث على المباحث التالية :

١- التعـريف بمصـطلح اللغـة الطبيعـية ومقابلـه اللغـة المصنوعة أو الاصطناعية .

٢- أقـوال الباحثـين من المستشرقين والعرب بأن العربية كانت لغة أدبية فحسـب ولـم تكـن لغـة طبيعـية - كما أشرت إلى ذلك منذ قليل - واختلاف أساليبهم في عرض هذه الفكرة .

٣- أدلتي على رفض هذا التصور ، وقد تمثلت في أربعة أدلة :

الأول : الحـديث النـبوي ، الثانـي : السماع عن أهل العربية ، الثالث: التنبـه إلى وجـود اللحـن ومحاربتـه لتنقيـة اللغة منه ، الرابع : دلـيل عقلـي ، ويتلخص في أن الله قد وصف القرآن بأنه عربي ، وأنه تحـدى بـه العـرب كافة ، وليس الشعراء والبلغـاء خاصة ، فالنتيجة أن العـربيـة الفصـحى كانـت لغـة العرب جميعا التي يتحدثونها في مختلف شـؤونهم ، ولـيس كمـا زعموا أنها كانت لغة أدبية لا يملكها إلا الشعراء والبلغاء .

٤- رددت على بعض الأفكار التي طُرحت في حديث أصحاب الفكرة المُشار إليها ، وهى :

* خلـو اللغـة الفصـحى من اللهجات المحلية * فكرة السليقة اللغوية ، وتعارضها مع اللحن في اللغة .
* احتجاجهم بوقوع اللحن فى شعر بعض الفحول على الفكرة نفسها .
* عدم وجود الإعراب في اللغة الفصحى ، وأن قواعده من صنع النحاة.

وانتهـيت بعـد هذا كله إلى أن العربية الفصحى كانت لغة منطوقة حـية طبيعـية ، وليست لغة أدبية فقط كما زعموا ، وذلك على الرغم من وجود اللهجات ، لأن اللهجات من العربية الفصحى .

٥- عرضت لما يمكن أن يكون إجابة على السؤال الآتي :
هـل العـربية الفصحى- أو الفصيحة على الأقل - مازالت لغة طبيعية فى العصر الحديث ؟

فقد أشرت إلى رأى بعض الباحثين الذين يرون أنها لا تزال كذلك ، وأدلـتهم على صحة هذا الرأي ، وتعقيبي على ذلك بأنها تعد في رأيي لغة نصف طبيعية - إن جاز هذا التعبير - ودليلي على ذلك .

٦- وأخيـرا جددت الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالفصحى والعمل من أجل الحفاظ عليها بكل السبل الممكنة .

أبحاث

هل العربية الفصحى لغة طبيعية ؟

د. مصطفى محمد إسماعيل وتيد*

مقدمـــة :

الحمـد لله رب العالمـين ، حمـدا يليق بجلاله وكماله ، والصلاة والسـلام علـى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد

فـإن هـذا الـبحث يـناقش فكـرة أثارهـا غير واحد من الباحثين المستشـرقيـن والعـرب جمـيعا مفادهـا أن العـربية الفصحى كانت لغة نموذجـية ، أو لغـة فنية تصب فيها القوالب الأدبية شعرا ونثرا ، ولم تكن لغـة حـياة ، تجرى على ألسن الناس في محاوراتهم ومختلف شؤونهم ، وإنمـا كانـت – حسـب تعبيـر بعضـهم – لغة مصنوعة صنعها النحاة والشـعراء . وهـذا فـي ظاهره يعنى أنها لم تكن لغة طبيعية بل كانت لغة اصـطناعية وفق مفهوم علماء اللغة المحدثين لهذا المصطلحين ، فهل هذا صحيح ؟ ذلك ما سوف يسفر عنه هذا البحث إن شاء الله .

والحقيقة أن هذه الفكرة ليست حديثة العهد ، فقد ترددت أصداؤها في فتـرات زمنـية مختلفة من هذا العصر ، وأخذت صورا متباينة في عرضها مـن قِـبَل هـؤلاء الباحثـين ، وصـارت من الأفكار المستقرة في أوساط اللغويين .

وأرى أن تلـك الفكرة لم تأخذ – على حد علمي – حقها من الدراسة والتمحـيص العلميـين بما يتناسب مع أهميتها وخطورة آثارها التي تتمثل فيما يأتي :

---

* مدرس العلوم اللغوية بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية – فرع دمنهور

* أنهـا تـتعارض مع ما عرفناه وثبت لدينا من أن مصادر المادة اللغوية العربية التى اعتمد
علـيها علماؤنـا في وضع أحكام اللغة هي القرآن والحديث والشعر والنثر الفني والنثر العادي (غير الفني) ، فإن كانت هذه الفكرة صحيحة فأين النثر العـادي إذن ؟ وعلى ذلك فهي تثير الشك فيما بين أيدينا من اللغة النثرية الطبيعـية التـي تمثل الحياة العربية بمختلف مواقفها وصورها ، وهى التي قـدمها لنا العلماء من اللغويين والمفسرين والبلاغيين والأصوليين وغيرهم فيما لا يحصى من النصوص .

* ومن ثم فإنها تبعث على الريبة فى الرواة والنَّقلة الذين أخذت عنهم هذه اللغة ، وهذا أمر خطير للغاية .

* كما أنها تجعلنـا غير مطمئنين ونحن نقـرأ في علوم ارتكزت على هذه اللغـة النثـرية ، كتفاسـير القرآن ، وشروح الحديث النبوي ، وكتب الفقه وأصـوله ، والـبلاغة وعلـومها ، وعلوم القرآن ، وعلوم اللغة من نحو وصـرف وإعراب ومعاجم وغير ذلك ، فإن هذه المؤلفات احتكمت إلى تلك اللغـة فـي تفسـير الألفاظ والتراكيب والصور البيانية والبلاغية واستنباط الأحكام الشرعية واللغوية .

كـل هـذه الأمـور هـي التي جعلتني أشرع في هذا البحث محللا ومفسرا ومستدلا بما أراه مناسبا من الأدلة ؛ بغية الوصول إلى وجه الصواب فيها ، وأزعـم أنني اهتديت بعد طول تأمل واطلاع ومقابلة بين الآراء والنصوص إلـى أن هـذه الفكرة ليست صائبة ، وأن العربية الفصحى بكل خصائصها كانـت لغـة منطوقة حية ، ولم تقتصر وظيفتهـا – كما قيل – على مجرد التعبير عن الأشكال الأدبية والفنية من شعر ونثر ، وأن وجود اللهجات إلى جانـبها لا يؤثر في هذا الحكم ، ومن ثم فهي لغة طبيعية بكل ما تحمله هذه العـبارة مـن معنـى ، هذا في القديم ، أما في الحديث فقد كان هناك رؤى مختلفة أشرت إليها وأدليت فيها برأيي الخاص .

وقد اشتمل البحث على النقاط التالية :

١ – التعـريف بمصـطلح اللغـة الطبيعـية ومقابلـه اللغـة المصنوعة أو الاصطناعية .

٢ – أقوال الباحثين من المستشرقين والعرب التى تعبر عن هذه الفكرة .

٣- أدلتـي علـى ما توصلت إليه من رفض هذا التصور ، وقد تمثلت في أربعة أدلة :

الأول : الحديث النبوي

إذ هو المصـدر الثاني من مصادر اللغة الموثـوق بها بعد القرآن الكريـم ، كما أنه يمثـل اللغة النثرية المتداولة بين الناس ، وهذا ما يبدو فـي كثيـر جدا من نصوصه بما فيها من حوارات حية في مختلف شؤون المسلمين .

الثاني : السماع من أهل العربية

واهـتمام العلمـاء بهـذا الأصـل اللغوي على اختلاف أزمانـهم وانتماءاتهم المذهبيـة وأخذهم اللغة عنهم مباشرة بالمشافهة ، خاصة لغة الحياة العادية غير اللغة الأدبية من شعر ونثر.

الثالث: التنبـُّه إلى وجـود اللحـن فى نطـق العـرب لُّغـة

وبخاصـة اللغـة النثـرية المتداولـة في المواقف الطبيعيـة ، والعمـل علـى محاربـتـه وتنقـيـة اللغة منه ، وفى هـذا دليل على أن العربيـة الصحيحة الخالية مـن اللحـن كانت هي الأصل في لغة الحديث .

الرابع : دليل عقلي

ويـتلخص في أن الله عز وجل وصف القرآن بأنه عربي ، وأنه قد تحـدى بـه العرب – فضلا عن غيرهم – ومعلـوم أن التحدي إنما يكـون فـيما يسـتطيعه المُتَحَدَّى ، فإذا أضفنا لهذا أن التحدي بالقرآن كان للعرب كافـة ، وليس للشعراء والبلغـاء خاصة ، فإننا نصـل إلى نتيجة ؛ هي أن العـربيـة الفصـحى كانـت لغـة مستعملة عند العرب جميعا وفى مختلف شـؤونهم ، وليس كما زعموا أنها كانت لغة القوالب الفنية والأدبية التي لا يملكها إلا الشعراء والبلغاء .

٤- مناقشـة بعـض الأفكار التي طُرحت في حديث أصحاب الفكرة المُشار إليها ، مثل :

* *خلو اللغة الفصحى من اللهجات المحلية .*
* *فكرة السليقة اللغوية ، وتعارضها مع اللحن فى اللغة .*
* *الاحتجاج بوقوع اللحن فى شعر بعض الفحول على إثبات الفكرة نفسها .*
* *عدم وجود الإعراب فى اللغة الفصحى ، وأن قواعده من صنع النحاة .*

٥- عرضـــت أخيرا للشق الثاني من هذه القضية ، وهو ما يمكن أن يكون إجابة على السؤال الآتي :

هل العربية الفصحى- أو الفصيحة على الأقل - لا تزال لغة طبيعية في العصر الحديث ؟

فقـــد أشـــرت إلـــى رأى بعـــض الباحثين وأدلتهم في هذا الشأن ، وتعقيبي عليه بوجهة نظري الخاصة .

وأخيرا ختمت البحث بتجديد الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالفصحى والعمل من أجل الحفاظ عليها بكل السبل الممكنة

******

هـــذا وإن كنت قد وفقت في هذا العمل فبفضل الله وحده ، وإن كان غيـــر ذلـــك فحســـبي المحاولة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباحث

لقد بلغت العربية من القوة والسبق والعلو إبان العصور الزاهرة للحضارة العربية والإسلامية شأنا عظيما ؛ حتى إن الحِفاظ عليها وإتقانها كان من أهم الأمور التي يحرص عليها أولو الأمر من الخلفاء والولاة ، فكانوا يُحذّرون من اللحن فيها ، حتى إنهم كانوا " يعدون اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه ، وأقبح من التفتيق فى ثوب نفيس " [١] ، كما كانوا يلتمسون العلماء من اللغويين والنحويين ليؤدبوا أبناءهم ، مثلما عُرف عن الكسائى الذي كان يؤدب الرشيد والأمين من بعده [٢] ، وغيره من علماء العربية الأوائل .

وقد بلغ من قوة هذه اللغة – وما كان هذا من قبيل الصدفة – أن اثنين من أبناء الفرس هما ابن المقفع وبشار بن برد ، على الرغم من قوة نزوعهما إلى الشعوبية ، لم يفكر واحد منهما فى استخدام لغته الأصلية ، أو إقامة وزن لها ، ولكنهما اعتمدا على اللغة العربية ، وصارا من أعلام الأدب العربي في العصر العباسي [٣] .

كان هذا هو شأن العربية ، فى عصور حضارتها الزاهرة أما فى القرون المتأخرة وخصوصا فى العصر الحديث فقد صار لها شأن آخر ، وذلك عندما انتقلت الحضارة لأمم أخرى لا تتحدث العربية ، وكما قالوا : " اللغات تتبع الحضارات صعودا وهبوطا " [٤].

فقد أثير حول العربية فى هذا العصر كثير من الأفكار غير المنصفة ، التى لم تكن تتحلى بمنهج علمى يلتزم الحيدة والموضوعية ، وربما كانت تحمل وراءها ميولا وأهدافا غير معلنة ، هذه الأفكار صاغتها أقلام بعض المستشرقين وبعض الكتاب من العرب أنفسهم .

فقد علت الأصوات وتتابعت الدعاوى بأن اللغة العربية لغة عرجاء ، لا تستطيع أن تواكب العصر ، وهى لغة قديمة وجامدة ، وهى لغة صعبة ،

---

(١) يوهان فك : العربية ص٣٦ ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، الخانجى ، القاهرة ١٩٨٠

(٢) القفطى : إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٥٦/٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى ، القاهرة ط١ ، ١٩٨٦

(٣) يوهان فك العربية : ص٦٢

(٤) ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٦٨ ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ط١ ١٩٢٩م .

لا تصلح إلا للشعر والكلام المنمق ، ولا تقدر على التعبير عن لغة العلم والتقدم والتقنيات الحديثة .

وكان من جراء ذلك أن نادى بعض الباحثين بصعوبة اللغة الفصحى، وصعوبة نحوها وصرفها وحروفها ، فقال بعضهم بضرورة العمل على تيسيرها، فوضعوا كتبا ميسرة فى النحو ، مثل النحو الواضح لمصطفى أمين وعلى الجارم ، وإحياء النحو لإبراهيم مصطفى ، واقترح بعضهم مثل قاسم أمين وسلامة موسى وأنيس فريحة إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات ، ونادى بعضهم مثل أحمد لطفى السيد باستعمال حروف العلة : الألف والواو والياء بدلا من الفتحة والضمة والكسرة ، ودعا فريق آخر إلى الكتابة بالعامية لأنها هى الأسهل والأقرب إلي أفهام الناس ولأنها اللغة الحية المتجددة المتطورة التى تسع الجديد من الأسماء والمصطلحات دون قيد ولا شرط ، ووضعوا كتبا يعبرون فيها عن هذه الدعوة مثل:

- كتاب مميزات لغات العرب وتخريج ما يمكن من اللغة العامية عليها لحفنى ناصف .
- وكتاب التحفة الوفائية فى تبيين اللغة العامية المصرية لوفاء محمد القونى
- وكتاب تهذيب الألفاظ العامية لمحمد على الدسوقى
- وكتاب موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى لمحمد فريد أبو حديد .

كما اقترح بعضهم أيضا مثل المستشرق "ولهم سبيتا" وعبد العزيز فهمي إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، بدعوى أن صعوبة استعمال العربية يكمن في الخط نفسه [٥] .

وكأن هذا الأمر مقتصر على العربية فحسب دون غيرها من اللغات ، وكأنهم لم يقرأوا قول فندريس عن الخط أو الرسم على حد تعبيره : " فلا يوجد شعب لا يشكو منه إن قليلا وإن كثيرا ، غير أن ما تعانيه الفرنسية

(٥) انظر د. نفوسة زكريا : تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر (الفصل الثاني) ، ص ١٩٥- ٢٢٦ الإسكندرية١٩٦٤

والإنجليزية من جرائه قد يفوق ما فى غيرهما ، حتى إن بعضهم يعد مصيبة الرسم عندنا كارثة وطنية "(٦).

فانظر إلى قوله *مصيبة* ، وقوله *كارثة* لتتبين شأن هذه المشكلة فى اللغات الأخرى غير العربية ، فلماذا كل هذا الهجوم عليها وليس الخطب فيها كما فى غيرها من اللغات .

ولن أناقش هنا هذه الدعوات ، لأنها قد نالت كثيرا من الانتقادات والدراسات التي صدرت عن علماء غيورين على لغتنا العربية وتاريخها العريق ، ولكن ما أود أن أناقشه هنا هو - كما ذكرت في المقدمة - تلك الفكرة الغريبة والخطيرة التي جاءت في كتابات بعض الباحثين من المستشرقين والعرب أيضا، وهى أنهم ادعوا أن العربية الفصحى لم تكن لغة حياة يومية منطوقة ، ولم يكن الناس يتكلمون بها في مخاطباتهم العادية ، وإنما كانت لغة نموذجية ، أو لغة فنية خاصة ، تصب فيها القوالب الأدبية شعرا ونثرا ، أي أنها لم تكن لغة طبيعية بحسب مفهوم علماء اللغة المحدثين ، وإنما كانت لغة مصنوعة صنعها النحاة والشعراء وذلك على حد تعبيرهم.

والحقيقة أن هذه الفكرة تستحق الوقوف أمامها ومناقشتها للأسباب الآتية :

- أنها تتعارض مع ما شاع عند اللغويين من أن مصادر المادة اللغوية العربية التي اعتُمد عليها في وضع أحكام اللغة هي القرآن والحديث والشعر والنثر الفني والنثر العادي (غير الفني) ، فإن كانت هذه الفكرة صحيحة فأين النثر العادي إذن ؟ وعلى ذلك فهي تثير الشك فيما بين أيدينا من اللغة النثرية الطبيعية التي تمثل الحياة العربية بمختلف مواقفها وصورها ، وهى التي قدمها لنا العلماء من اللغويين والمفسرين والبلاغيين والأصوليين وغيرهم فيما لا يحصى من النصوص .

- ومن ثم فإنها تبعث على الريبة فى الرواة والنُقلة الذين أخذت عنهم هذه اللغة ، وهذا أمر خطير للغاية .

- كما أنها تجعلنا غير مطمئنين ونحن نقرأ فى علوم ارتكزت على هذه اللغة النثرية ، كتفاسير القرآن ، وشروح الحديث النبوي ، وكتب الفقه

(٦) اللغة ص٤٠٥ تعريب د. عبد الحميد الدواخلى ، ود. محمد القصاص ، القاهرة ، ١٩٥٠

وأصـــوله ، والـــبلاغة وعلـــومها ، وعلوم القرآن ، وعلوم اللغة من نحو وصـــرف وإعراب ومعاجم وغير ذلك ، فإن هذه المؤلفات احتكمت إلى تلك اللغـــة فـــى تفســـير الألفاظ والتراكيب والصور البيانية والبلاغية واستنباط الأحكام الشرعية واللغوية .

*****

وقبل أن نستعرض أقوال الباحثين فى عرض تلك الفكرة يحسن بنا أن نقدم تعريفا موجزا عن اللغة الطبيعية واللغة المصنوعة لنعرف أين نضع العربية الفصحى بعد ذلك .

فاللغـــة الطبيعـــية natural language كما عرفها علماء اللغة هي لغـــة الكـــلام الإنساني فى أي مجتمع ، أو بتعبير آخر هى اللغة التى نشأت نشأة طبيعية على ألسنة البشر وفى مجتمعاتهم بوصفها ظاهرة اجتماعية .

وهكـــذا يمكننا القول إن اللغة الطبيعية هي اللغة التي يكتسبها الإنسان مـــنذ نشأته وسط مجتمع إنساني ، ويتحدثها بالسليقة دون جهد أو مران ، وهـــى نفســـها لغة المجتمع التي يتواصل بها أفراده علي اختلاف ثقافاتهم وطبقاتهم في محاوراتهم اليومية .

ويـــرى علماء اللغة أن اللغات الطبيعية فى ظاهرها مختلفة من حيث بنـــية المفـــردات وتـــراكيب الجمل ، ولكنها فى الحقيقة تحتوى على أصول عامـــة أو كلـــية تجمـــع بيـــنها ، مـــثل ثنائية التركيب والمقطعية والعلاقة الاعتباطية بين اللفظ والمعنى ...إلخ .

واللغـــة الطبيعـــية تقابل اللغة المصنوعة أو الاصطناعية artificial language_ كالاسبرانتو التي وضعها العالم اللغوي زامنهوف ، ونشر أول كـــتاب له عنها عام ١٨٨٧ م ، وهى تلك اللغة التي يمكن اختراعها بطريقة خاصة لتيسير الاتصال الدولي . وقد لجأ علماء اللغة المعاصرون لهذا النمط من اللغة المنطقية لخلق نموذج تجريدى لكل نظم الاتصال الأخرى ، بحيث يمكـــن وضـــع هذا النموذج إزاء أية لغة طبيعية تستعمل فعلا ، أو إزاء أية لغة قد تستعمل في المستقبل ولا نعرفها الآن (٧)

(٧) ملخص من :

وبعد هذا التعريف بكل من اللغتين الطبيعية والمصنوعة نستعرض عبارات الباحثين من المستشرقين والعرب عن الفكرة السابقة ، ثم نقرر بعدُ وجه الصواب .

أولا : الباحثون المستشرقون :

١- يقول أنطون شبيتالر عن العربية الفصحى :

" وهذه اللغة الفصحى تعد - كما يقول بريتوريوس - لغة فنية خالصة ، وتعلو بما لها من طبيعة مميزة على كل اللهجات ، غير أنها إذ تجرى على ألسنة المتحدثين بهذه اللهجات فإنها لم تخل من تأثير تلك اللهجات فيها باستمرار ، ولعلها اختلفت من جهة إلى أخرى تبعا لذلك ، غير أن الجهود المنظمة والعاملة على طرد القاعدة للغويين المتأخرين استطاعت طمس هذه الاختلافات طمسا تاما " (٨).

* *ويقول أيضا :*

" فإنه إذا كان اللغويون العرب في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي لا يزالون يذهبون إلى البدو ليدرسوا لغتهم فإن هذا يعنى بالطبع أنهم يبحثون هناك عما يفتقدونه في المدن وهو العربية ، والمقصود بها في هذه الحالة هو لغة الشعر العربي القديم على الأخص ، التي ظلت حية تروى عن هؤلاء البدو أمدا طويلا .

غير أن هذا فيما يبدو لا يعنى أن تلك العربية تساوى لغة التخاطب عند البدو فإن اللغويين العرب لم يكترثوا بهذه اللغة الأخيرة لأنهم كانوا يرمون

R . R . K Hartmann and F . C . Stork, Dictionary of language and linguistics, the language centers , universities of Noringam and sheffield .

David Crystal, The cambridge encyclopedia of language, p352 , Cambridge university press1987

* د. محمد حسن باكلا وآخرون : معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص٥٩ ، مكتبة لبنان ط١ ، ١٩٨٣

* نظرية تشومسكى اللغوية لجون ليونز، ترجمة د. حامى خليل ، هامش المترجم ص٢٤-٢٥ ، ٧٥ دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢

(٨) انظر تعليقات شبيتالر على كتاب العربية ليوهان فك قبل نص المؤلف ، ص٩.

إلى غرض آخر مختلف فلقد كان الشيء الوحيد المستأثر بجهود اللغويين العرب دائما هو العربية الفصحى [٩].

* وقال أيضا معقبا على (يوهان فك) حينما فسر نطق الأعاجم للعربية بلا إعراب في عصر الفتوحات الإسلامية بأنهم لم يألفوا في لغاتهم ظاهرة التصرف الإعرابي فتركوا الحركات الأخيرة لصعوبتها عليهم ، قال :

" غير أن ذلك يفترض قدرة على التجريد ، تعتمد على اطلاع لغوى على بناء المورفيمات العربية الخاصة بذلك ، وهو أمر لم يكن متوفرا لدى هؤلاء ، وأسهل من هذا تفسير هذه الظاهرة بسماع تلك الشعوب للعربية في صورة غير معربة ، ولذلك لم يكن أمامهم صورة أخرى يحاكونها ، ولم يكن عند هؤلاء قدرة على التفرقة بين العامية والفصحى ." [١٠]

فالواضح من كلامه أنه يرى أن العربية التي كانت موجودة في هذا الوقت كانت تفتقر إلى الإعراب ، وهو كما نعلم أخص خصائص اللغة العربية الفصحى ، ومن ثم فقد صرح بأنها كانت لغة عامية ، وهذا يعنى أن الفصحى لم تكن مستعملة على ألسنة العرب فى هذه الحقبة الزاهرة من تاريخ العربية ، وهو أمر في غريب جدا .

٢- *وقال فتسشتاين* : إن العربية الفصحى التي نعرفها لم تكن لغة كلام أبدا [١١] .

٣- *وقال لاندبرج* : إن قواعدها النحوية يغلب أن تكون من صنع الشعراء [١٢] .

٤- *وقال مارسيه* : إنها مثل لغة هومير المصنوعة [١٣] .

٥- وكذلك يرى أيضا كارل فوللرز أن العربية الفصحى التي رواها لنا النحويون العرب ، والتي توجد في القرآن كما احتفظ بها الشعر في موازينه ، هذه اللغة يراها فوللرز مصنوعة ، وينكر على الإطلاق أن هذه اللغة

---

(٩) السابق ص ٩-١٠ .
(١٠) السابق ص ١٢
(١١) د . رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٧٧ ، الخانجى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٣
(١٢) السابق والصفحة
(١٣) السابق والصفحة

كانت حية في مكة على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يشك أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة .
كما شكك أيضا في اللغة التي كتب بها القرآن وقال إن النص الأصلي للقرآن قد كتب بإحدى اللهجات الشعبية التي كانت سائدة في الحجاز ، والتي لا يوجد فيها كما لا يوجد في غيرها تلك النهايات المسماة بالإعراب ، وأنه انتقل إلى هذا النص - فيما بعد - الشكل الأدبي للغة العربية الذي هو عليه الآن (١٤) .

وقد استدل هؤلاء بأدلة :

أحدهما : دليل لغوى وهو أن جميع اللهجات العامية المنشعبة من العربية والتي تستخدم الآن في الحجاز ونجد واليمن ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب العربي مجردة من الإعراب ، فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لانتقل شئ من نظامها هذا إلى جميع اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها .

وثانيها : دليل منطقي عقلي وهو أن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه ، وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها بعضها ببعض لا يعقل أنها كانت مراعاة في لهجات الحديث ، لأن لهجات الحديث تتوخى في العادة السهولة واليسر وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير.

وثالثها: أن هذه القواعد لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ، ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب في عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها ، فهي تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التي ظهرت في العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وما إليهما (١٥) .

*****

ثانيا : الباحثون العرب :

١- قال د. ابراهيم أنيس :

---

(١٤) السابق ص٣٧٧-٣٧٨

(١٥) د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ص ٢١٠-٢١١ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٨

" وتلـــك اللغة الأدبية التي خطب بها الخطباء ، وشعر بها الشعراء ، ونزل بها القرآن الكريم لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة ، بل يجب أن تنـــزه عـــن هـــــذا ، وأن نرقـــى بها إلى مستوى أرفع منزلة من أساليب التخاطب ! ." (١٦) .

ثم برر هذا بأن العربية " لم تكن لغة سليقة يتكلمها الناس دون شعور بخصائصـــها ، بل كان المتكلم بها يشعر كل الشعور بنواحي القوة والجمال فـــيها ويتطلع إلى إجادتها وتحسينها ، أما لغة التخاطب فهي تلك التي يمكن أن يقال إن الناس كانوا يتكلمونها بالسليقة ويؤدون بها التافه من شؤونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، ولا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون فيها بتأدية الأغـــراض العامة في الحياة العادية ، فإذا جد الجد ، وتطلب المجال نواحي خاصـــة مـــن القول ؛ نواحي جدية لا يعمد إليها في كل يوم لجأ المتكلم من الخاصة إلى تلك اللغة الأدبية ورآها أهلا لذلك " (١٧) .

* وقـــال فى موضع آخر عند حديثه عن ظاهرة الإعراب والخطأ فيه ، وهو من أهم خصائص العربية الفصحى :

" وحينـــئـــذ لا مناص لنا من أن نعد ظاهـــرة الإعراب من الظواهر التى لا يمكن أن

تمـــت للسليقة اللغوية بصلة ؛ وذلك لأن صاحب اللغة الذي يتكلمها بالسليقة يســـتحيل علـــيه الخطـــأ فـــي ظواهـــر تلك اللغة دون أن يدرك أنه أخطأ ؛ فالإنجليـــزي لا يخطئ في كلامه إلا إذا قسنا كلامه بمستوى لغوى آخر فوق كلام الناس ، ونحن في كلامنا بالعامية لا نخطئ ، فإذا زل اللسان في لحظة ارتـــباك أو تلعثم رجعنا عن هذا الزلل في لمح البصر وأدركنا أننا قد وقعنا فـــيه . ولا يتصـــور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية في أي ظاهرة مـــن ظواهر لغته في تركيب أصواتها أو في ترتيب الكلمات داخل الجمل أو في صيغها أو في طريقة النفي والإثبات أو في طريقة الاستفهام أو التعجب ، ونحو ذلك.

---

(١٦) فـــي اللهجات العربية ص ٤٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٩٠م .

(١٧) السابق والصفحة

وعلى هذا يمكننا أن نتصور أن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة في متناول العرب جميعا كما يقول النحاة ، بل كانت – كما قلت في كتاب اللهجات العربية – صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ، ولم تكن من معالم الكلام العربي في أحاديث الناس ولهجات خطابهم " (١٨) .

٢- *وقالت د. نفوسة زكريا سعيد :*

" هذه اللغة التى وصلت إلينا في عنفوان اكتمالها وعظمتها في أقدم ما وصل إلينا من آثارها وهو الأدب الجاهلي ، لم تكن هي اللغة التي يتحدث بها الناس ..." (١٩)

٣- *وقال د. تمام حسان :*

" والذي أراه أقرب إلى الصواب أن العربي الجاهلي والإسلامي كان من أصحاب الازدواج اللغوي،على نحو ما نكون نحن الآن ، فله لهجة قبيلة تقف بإزاء ما نعرفه الآن باسم العامية ، وله لغة فصحى هي التي نعرفها من خلال الأدب وله سليقة فى كل منهما ، ولكل من اللغتين أدوار في حياته ، فمن المواقف ما يستعمل فيه اللهجة القبلية ومنها ما يتطلب الاستعمال الفصيح " (٢٠) .

٤- *وقال د. رمضان عبد التواب :*

" اتضح لنا الآن أن اللغة العربية المشتركة تتصف بأنها لغة فوق مستوى العامة من العرب وأنها لغة الآثار الأدبية وأنها لغة منسجمة موحدة خالية من الخواص المحلية، ولذلك لا يصح مطلقاً أن نقول عنها إنها لغة سليقة لكل العرب وهذه صفة من صفات اللغة المشتركة وهى أنها ليست لغة سليقة ، لأن معنى السليقة هو أن تتكلم لغة من اللغات بغير شعور بما لها من خصائص " (٢١) .

وقد استدل علي ما ذهب إليه بقوله : " ولعل أوضح الأدلة علي أن اللغة العربية الفصحى لم تكن لغة سليقة لكل العرب تلك الروايات الكثيرة التي

---

(١٨) من أسرار اللغة ص ٢٠٢- ٢٠٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط٧ ١٩٩٤

(١٩) تاريخ الدعوى إلي العامية ص : ٤

(٢٠) مقال عنوانه التراث اللغوي العربي منشور بمجلة فصول مج ١ ، عدد ١ ، أكتوبر ١٩٨٠ ، ص ٩٠

(٢١) فصول في فقه العربية ص ٩٠- ٩١ .

تشـير إلـي وقـوع اللحن من العرب قبل الإسلام وبعده " ، ثم قدم الأدلة علـى ذلـك مـن شـعر النابغـة والفرزدق وغيرهما ممن وقع اللحن فى أشعارهم (٢٢) .

٥- *وقال د. محمد حسن عبد العزيز :*

" والعربية الفصحى كانت لغة أدبية ، لقد كانت لغة الشعر أساسا ، وقد كان الشعراء والخطباء هم الذين خلقوا هذه اللغة الأدبية المشتركة . " (٢٣) .

وقال أيضا :

" إن اللغـة الفصحى أو المعيارية هي فى الحقيقة صورة لغوية مثالية ، فلا أحـد يستعملها ، ولا أحد يعرفها تماما ، وكل ما هنالك أننا نحاول الوصول إليها ، وتتفاوت حظوظنا فى ذلك " (٢٤) .

******

وبهذا التصور الذي قدمه هؤلاء الباحثون عن العربية الفصحى تكون هـذه اللغـة قد خرجت عن مفهوم " اللغة الطبيعية " الذي عرضنا له منـذ قليل ، وإذا لم تكن العربية لغة طبيعية فهل هذا يعنى أنها لغة مصنوعة كما صرح بعضهم بهذا ؟! ، وإذا لم تكن هذه ولا تلك فماذا تكون ؟ .

أنـي أرى أن العـربية الفصـحى كانت لغة طبيعية بمفهموها الذي سبقت الإشارة إليه .

وسـأذكر فيما يأتى أربعة من الأدلة أراها كافية لإثبات هذا الرأى ، ثم أتبع ذلك بمناقشة لبعض الأفكار التى وردت فيما نقلته من كلامهم .

أولا : الأدلـــــــــة

١- الحديث الشريف

الأحاديث النبوية مصدر أصيل من مصادر اللغة العربية الفصحى ، فلا شـك أن النبـي - صـلى الله علـيه وسلم - قد بلغ من الفصاحة والبيان واللسن ما لم يبلغه عربي قط ، وذلك أنه قد أوتى جوامع الكلم .

---

(٢٢) السابق ص ٩١- ٩٥

(٢٣) مدخل إلى اللغة ص ٢٦ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨

(٢٤) السابق ص ٢٨

ولست هنا بصدد الحديث عن قضية استشهاد اللغويين والنحويين بكلامه صلى الله عليه وسلم ، وانقسامهم في هذا الشأن ثلاث فرق : مانعين ومجيزين ومتوسطين،وأدلة كل منهم ، لأنها دُرست كثيرا ، كما أنها لا تتصل اتصالا جوهريا بما نتحدث فيه (٢٥) ، ولكن ما أود أن أثبته هنا أن كتب الحديث الشريف ، خاصة الصحاح منها كصحيح الإمام البخاري ، وصحيح الإمام مسلم قد اشتملت على قدر كبير جدا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي رواها عنه رواة عدول ثقات نطمئن إلى ما رووه ، وفي سياقات متباينة ، هذه الأحاديث تمثل في جزء كبير منها – إن لم نقل معظمها – تلك اللغة العربية الفصحى الحية التي كانت مستعملة استعمالا طبيعيا ، والتي هي في رأى الباحثين اللغويين – حتى وإن كانوا من المستشرقين – أهم من الشواهد الأدبية الأخرى كالشعر مثلا ؛ يقول ولفنسون :

" فالأحاديث الصحيحة أهم كثيرا فى نظرنا أثناء البحث اللغوي من الشعر الجاهلي الصحيح ؛ لأنها من النثر ، وهو دائما يعطى الباحث اللغوي صورة صحيحة لروح عصره بخلاف الشعر ؛ لأنه يحتوى على كثير من الصيغ الفنية والعبارات المتكلفة التي تبعده عن تمثيل الحياة العادية الحقة ، وتنئيه عن الروح السائدة في عصره بغير تكلف " (٢٦)

فقد قرر إذن ولفنسون أن لغة الحديث الشريف أكثر صدقا في التعبير عن الحياة العادية ، وهذا ما أود أن أقرره أنا أيضا ، أعنى أن الأحاديث النبوية كانت خير دليل وأوضح برهان على أن العربية الفصحى كانت

---

(٢٥) انظر هذه الفكرة تفصيلا فيما يأتى : السيوطى : الاقتراح فى علم أصول النحو ص ٥٢– ٥٥ ، تحقيق د. أحمد محمد قاسم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦ ، البغدادى : خزانة الأدب ١/٩–١٥
تحقيق : عبد السلام هارون ، الخانجى،القاهرة ط٣ ، ١٩٨٩، د. عبد المجيد عابدين : المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية ص٩٩–١٠٢ ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة د.ط، د.ت ، د: خديجة الحديثى : دراسات فى كتاب سيبويه ص ٤٨–٦٨ مكتبة غريب ، القاهرة د.ط ، د.ت ، د: أحمد مختار عمر : البحث اللغوي عند العرب ص٣٦–٤٢ ،عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٧، د. طاهر سليمان حمودة : القياس في الدرس اللغوي ١٨٥–١٩٥ ، الدار الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢م

(٢٦) تاريخ اللغات السامية ص٢١١

تجـرى على ألسنة الناس ، فكثيرا ما نرى فيها حوارات ، وأسئلة وإجابات بـين النبـي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار ، وغير ذلك مما روى عنه فى سياقات كثيرة من سيرته صلى الله عليه وسلم .

والشـواهد علـى ذلك أكثر من أن نحيط بها ، ولكن نمثل لها ببعض الأحاديث التي رويت عنه صلى الله عليه مسلم ، خاصة تلك التي وردت في مواقـف إنسـانية طبيعـية لا يبدو فيها ما يمكن أن نعده نحن من الصنعة الأدبـية ، وما إلى ذلك من فنون القول ، خاصة تلك المواقف التي لا تحتمل أى نـوع من تكلف البيان أو الفصاحة – إن جاز لنا القول بهذا في أي كلام غيـر كلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ الفصاحة والبيان طبع له في كل الأحـوال – وذلـك كمـا سـنرى في أحاديثه في الذكر والحدود و الدعاء والتوسـل إلـى الله فـي مواقف مختلفة ، وفى استخلافه أبا بكر للصلاة بالـناس فـي مرضه الذي تُوفى فيه ، ولا ننسى أن ننظر في أثناء ذلك إلى لغة الرواة فى هذه الأحاديث وما فيها من دلالة على أنها كانت لغة منطوقة حـية تجـرى فى سياقات طبيعية ، ولذلك آثرت أن أنقل الأحاديث بأسانيدها كما وردت لأبين هذا الاستعمال الطبيعي للغة :

١- فضـل دوام الذكر والتفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا .

حدثـنا يحيـى بـن يحيـى التيمي وقطن بن نسير (واللفظ ليحيى) أخبـرنا جعفـر بـن سليمان عن سعيد بن إياس الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي قال (وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم): قال : لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قـال سـبحان الله مـا تقول قال قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسـلم يذكـرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا قـال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسـول الله صـلى الله علـيه وسلم قلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك قلت يا رسول الله نكون عندك تذكـرنا بالـنار والجـنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضـيعات فنسـينا كثيرا فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . ثلاث مرات [٢٧].

٢- *كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع إلى السلطان*

حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فخطب قال يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها [٢٨] .

٣- *فى دعائه وتوسله :*

* *عند النوم وأخذ المضجع*

حدثنا عثمان بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم - واللفظ لعثمان - (قال إسحاق أخبرنا وقال عثمان حدثنا) جرير عن منصور عن سعد بن عبيدة حدثني البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت واجعلهن من آخر كلامك فإن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة " قال فرددتهن لأستذكرهن فقلت آمنت برسولك الذي أرسلت قال قل آمنت بنبيك الذي أرسلت [٢٩] .

* *دعاؤه عند خروجه من الطائف*

قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى

---

(٢٧) صحيح مسلم ٤/٢١٠٦-٢١٠٧ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٩٥٥ .

(٢٨) صحيح البخارى ١٠/٢٧٣ مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ط٤ ١٩٩٨

(٢٩) صحيح مسلم ٤/٢٠٨١-٢٠٨٢

مـــن تكلنـــي إلي بعيد يتجهمني أم إلي عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك (٣٠) .

* *دعاؤه في غزوة بدر*

حدثـــنا هـــناد بـــن السري حدثنا ابن المبارك عن عكرمة بن عمار حدثنـــي سماك الحنفي قال سمعت ابن عباس يقول حدثني عمر بن الخطاب قـــال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهـــم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله علـــيه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فمـــا زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبـــيه فأتـــاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم ألتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك (٣١).

٣- استخلافه أبا بكر للصلاة بالناس في مرضه الذي توفى فيه

حدثنا محمد بن رافع وعبد بن حميد (واللفظ لابن رافع) قال عبد : أخبـــرنا ، وقال بن رافع : حدثنا عبد الرزاق . أخبرنا معمر . قال الزهري وأخبرنـــي حمزة بن عبد الله بن عمر . عن عائشة قالت : لما دخل رسول الله صـــلى الله علـــيه وســـلم بيتي قال : " مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالـــت: فقلـــت : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعـــه ، فلو أمرت غير أبي بكر ! قالت : والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الـــناس بـــأول مـــن يقوم في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت فـــراجعته مـــرتيـــن أو ثلاثـــا فقال: ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف " (٣٢) .

---

(٣٠) انظر: القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٢١١/١٦ ، الهيئـــة العامة للكتـــاب ، القاهرة ١٩٨٧ د. ط ، مختصر السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٨/١-٢٥٩ ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٧ .

(٣١) صحيح مسلم ١٣٨٣/٣-١٣٨٤

(٣٢) صحيح مسلم ٣١٣/١

فهـذه الأحاديث جميعها تمثل اللغة العربية الفصحى الطبيعية ، فقد رأينا تنوع المواقف والسياقات التي وردت فيها ، وهو ما يثبت ما نراه أن تلك اللغة كانت طبيعية حية منطوقة ، وليس كما زعموا أنها كانت لغة أدبية وفنية خالصة .

******

٢- *السماع :*

يعرف السيوطى السماع بأنه : " ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم ، وكلام نبيه صلي الله عليه وسلم وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده ، إلي أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظماً ونثراً عن مسلم وكافر " (٣٣) .

والسماع أحد الأصول الأساسية الثلاثة التي قام عليها علم أصول النحو أو أصول النظر العلمي في اللغة عند العرب مع القياس والعامل(٣٤) ، فقد كان اللغويون والنحاة الأقدمون يسيحون في الجزيرة العربية ، يسألون الأعراب ، ويأخذون عنهم اللغة شفاهة ، سواء بالرحلة إليهم فى البادية ، أو بالتلقي عمن يفد منهم إلى البصرة والكوفة ، والروايات المنقولة عنهم في هذا الشأن كثيرة ، فقد سأل الكسائيُ الخليلَ بنَ أحمد قائلاً : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج الكسائى إلي البادية ، ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ (٣٥) .

ونجد قريبا من هذا يروى عن يونس بن حبيب (٣٦) ، وأبى عمرو الشيبانى ، الذي قال عنه ثعلب : دخل أبو عمرو البادية ومعه دستيجتان {أي آنيتان } من حبر فما خرج حتى أفناهما بكثب سماعه عن العرب (٣٧) ، والنضر بن شميل ، الذي يُحكى عنه أنه أقام في البادية أربعين سنة يأخذ

(٣٣) الاقتراح في علم أصول النحو ص ٤٨

(٣٤) د. حلمي خليل : العربية وعلم اللغة البنيوي ص٣٢ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٨ .

(٣٥) القفطى : إنباه الرواه ٢٥٨/٢ ، وانظر أيضا : ابن الأنبارى : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٦٧ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ١٩٩٨

(٣٦) نزهة الألباء ص ٥٢

(٣٧) السابق ص٨٦

اللغــة عــن الأعراب [٣٨] ، وأبى زيد الأنصاري ، فقد كان سيبويه إذا قال سمعت الثقة فإنما يريد أبا زيد هذا ، وقد حكى من شواهد النحو واللغة عن العــرب ما لم يحكه غيره [٣٩] ، وكان يقول : " ما أقول: قالت العرب إلا إذا ســمعته من عجز هوازن وفى رواية أخرى إلا إذا سمعته من هؤلاء : بكر بــن هــوازن وبنــى كلاب وبنى هلال أو من عالية السافلة ، أومن سافلة العالية ، وإلا لم أقل: قالت العرب " [٤٠] .

ولا فــرق فــى الاعــتداد بالسماع بين المدارس النحوية ؛ فكما اهتم البصريون بالسماع كذلك اهتم به الكوفيون ، إذ كانوا جميعا يحرصون علي لقــاء الأعــراب والسماع منهم ، بل كان الكوفيون أوسع رواية وأكثر علماً بأشــعار العرب ، حتى إنهم احترفوا السماع وتفوقوا فيه علي البصريين ، وتوسعوا في القياس عليه ، حتى قيل إنهم إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كــلام جعلــوه بابــاً وفصلاً ، أو إنهم إذا سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالــف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه ، وإن كان البصريون يتميزون عــنهم بصرامة المنهج والتوخى الشديد ؛ يدل على هذا قولهم للكوفيين : " نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها من أكلة الشوارىز وباعة الكواميخ " [٤١] .

وهــذا الذي سلكه علماء اللغة الأقدمون يعد منهجاً علمياً يحسب لهم فــإن " أيــة دراســة علمــية لابــد أن تقوم على مادة تصبح هي موضوع الملاحظــة والتصــنيف ثم التجريد والتعميم ، وفي الدراسة اللغوية نجد أن المــادة اللغــوية المنطوقة هي مادة البحث التي حددها علماء اللغة أو كما يقــال : اللغــة المــنطوقة Spoken language ولكن السماع عند علماء العــربية يــؤكد أصــالة مــبدأ دراسة اللغة المنطوقة ، وسبقها علي اللغة المكــتوبة ، وهــو عكــس ما سار فيه تطور الفكر اللغوي الغربي الذي بدأ بالنصوص المكتوبة لينتهي إلي اللغة المنطوقة أو المسموعة .

غيــر أن علمــاء اللغــة العربية بعد ذلك أدخلوا النصوص مصدراً من مصــادر المــادة اللغوية ولكن الأولوية ظلت للسماع الذي انتهى إلي أصل

---

(٣٨) السابق ص٨١
(٣٩) السابق ص١١٣-١١٤
(٤٠) السيوطى : الاقتراح ص ٢٠٧
(٤١) السيوطى : الاقتراح ص ٢٠٢

واضح من أصول التفكير اللغوي عند العرب يعتمد علي ما يسمع من عربي فصيح شعراً كان أم نثراً أو سماع ما ورد في نص ثابت معترف بفصاحته لكن الأصل فيه (أي في السماع) هو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها " (٤٢) .

وهكذا أصبح السماع من أهل اللغة دعامة من أهم الدعائم التي قامت عليها الدراسة اللغوية عند علماء العربية ، " وأصبح الأعرابي إذا ما اكتسب صفتي البداوة والفصاحة من حقه أن يتحكم في العلماء وآرائهم بالتصويب والتخطئة ، ويصبح حديثه قانونا ينصاع له العلماء ، وينفذون مشيئته ، وهكذا ينقلب الأعرابي – بسر تلك البداوة المباركة – أستاذا للعلماء ، يتحاكمون إليه في الخصومات والخلافات " (٤٣) .

ويكفى دلالة على ذلك ما رواه اللغويون عن سيبويه والكسائى فيما عُرف بالمسألة الزنبورية ، إذ كان الأعراب فيها هم الحكم الفصل بين الرجلين ، وهى قصة مشهورة لا داعي إلى إطالة الحديث فيها (٤٤).

ومهما يكن من أمر ، فالذي أريده من هذا كله أن أقرر أمرين مهمين :

الأول: أن العلماء الذين جمعوا لنا اللغة لم يجعلوا جل اعتمادهم فى هذا الجمع على صحف مكتوبة ، أو على أخبار تتناقلها الرواة ، وإنما أخذوا هذه اللغة من أفواه أصحابها ، وهذا يجعلنا نثق بهم ونطمئن إلى ما قدموه لنا منها .

الثاني: أن هؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى الأعراب في البوادي ومكثوا بينهم الأعوام الطوال ، وشافهوهم أيضا في الحواضر ، لم يهتموا باللغة الأدبية – شعرها ونثرها – فحسب ، ولكنهم أخذوا اللغة كلها ، وبكل صورها ، حتى لغة الأطفال والمجانين نقلها العلماء كما قال السيوطى (٤٥) ، وذلك لأنهم جميعا أبناء اللغة ، ومن هذه اللغة تلك اللغة الطبيعية التي كانت

---

(٤٢) د . حلمى خليل : العربية وعلم اللغة البنيوى ص ٣٢ – ٣٣ (بتصرف يسير)

(٤٣) د. محمد عيد : الاستشهاد والاحتجاج باللغة ص٣١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ١٩٨٨

(٤٤) انظر الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص٦٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣

(٤٥) المزهر في علوم اللغة ١٣٩/١ ، شرح وتعليق : محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، على البجاوى ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٨٧

تجرى على ألسنة الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم اليومية ، وهذا ما أكده المحققـون من علمائنا ؛ قال الأستاذ أحمد أمين في أثناء حديثه عن جهود اللغويين والنحويين :

" ومـن مصـادرهم سـماع الأعراب فى البادية ، وكثيرا ما كانوا يخرجون ويمضـون الأعـوام فيها ، ويخالطون الأعراب ، ويؤكلونهم ويشاربونهم ، ويسـمعون مـنهم ويدونون ، يسمعون المرأة والرجل والغلام يتحدثون في الإبل والمرعى والزواج والطلاق وجميع شؤونهم ، ويصغون إليهم وينقلون عـنهم ، وقد كثر ذلك من العهد الأموي إلى العصـر العباسي الأول إلى ما بعـده وروى عنهـم من ذلك الشيء الكثير" (٤٦) .

إذن فقـد كانـت العربية الفصحى مستعملة بصورة واضحة في لغة الحـياة العادية ، لا في اللغة الأدبية فحسب ، وهذا يجعلنا نقرر أن العربية كانت لغة طبيعية . والنصوص التي يمكن أن نستشهد بها على الأمرين معا – أعنى السماع أولا ونقل اللغة النثرية العادية عن أهل العربية ثانيا – أكثر من أن تحصى ، ولكن نجتزئ بما يأتى :

١ – قـال الخليل :

* "سَـمِعتُ أعـرابياً فصـيحاً من أهْل الصَّمَّان يقول: كُلُّ فُرْجَةٍ تكُونُ بين شَيْئَيْن فهو عُقْرٌ وعقْرٌ لغتان، وَوَضَع يَدَيه على قائِمَتَيَ المائدة ونَحْنُ نَتَغدَّى فقال: ما بَيْنَهُمَا عُقْر".(٤٧)

* والفلـيقُ والفلـيقة كالعجـيب والعجيـبة، يقول العرب: يا عجباً من هذا الفليقةِ. وأمرٌ
مفلِقٌ أي عجب.(٤٨)

* وفُـواق الناقة: رجوع اللبن في ضرعها بعد حلبها، تقول العرب: ما أقام عندي
فُواقَ ناقة.(٤٩)

---

(٤٦) ضحى الإسلام ٢/ ٢٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨

(٤٧) معجـم العين (عقر) ، تحقيق : د. مهدى المخزومى ود. إبراهيم السامرائى ، العراق ١٩٨٠

(٤٨) السابق (فبق) .

(٤٩) السابق (فوق)

٢- *وقال سيبويه :*

* ومن ذلك قول العرب: ضعه رويداً أي وضعاً رويداً .(٥٠)
* ومن ذلك قول العرب: ادفع الشر ولو إصبعا . (٥١)
* وسمعنا بعض العرب يقول: ما شأن عبد الله والعرب يشتمها. (٥٢)
* وسمعنا العرب الموثوق بهم يقولون: التراب لك والعجب لك .(٥٣)

٣- *وقال الفراء :*

* والعرب تُبدل الفاء بالثَّاء فيقولون: جَدَثٌ وجَدَفٌ، ووقعوا في عاثور شَرٍّ وعافور شرٍّ، والأثاثيّ والأثافيّ. وسمعت كثيرا من بنى أسد يسمِّى المَغافير المغاثير (٥٤).
* وقرأها أبو عبد الرحمن السُّلمى والحسن وحُميد الأعرج مخففة (ألاَ يَسْجُدُوا)(٥٥) على معنى ألاَ يا هؤلاء اسْجُدُوا فيضمر هؤلاء، ويكتفى منهَا بقوله (يا) قال: وسَمعت بعض العرب يقول: ألاَ يا ارحمانا، ألاَ يا تصدَّقا علينا قال: يعنينى وزميلى.(٥٦)

٤- *وقال المبرد :*

* وحدثني أبو عثمان المازني قال: حدثني الزيادي قال : سمعت قوماً من العرب يقولون: أزْفَتَتْ العروسَ، وهي لغةٌ. (٥٧)
* ومما يؤكد ذلك السماع (يتحدث عن جمع شيء على أشاوَى): قول الأصمعي فيما حدث به علماؤنا : أن أعرابياً سمع كلام خلف الأحمر

---

(٥٠) الكتاب ١/٢٤٣
(٥١) السابق ١/٢٧٠
(٥٢) السابق ١/٣٠٩
(٥٣) السابق ١/٣٣٠
(٥٤) معاني القرآن ١/٤١ ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى و محمد على النجار ود . عبد الفتاح شلبى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط. الأولى ١٩٥٥ .
(٥٥) النمل : ٣٥
(٥٦) معاني القرآن ٢/٢٩٠
(٥٧) الكامل فى اللغة والأدب ، كتب هوامشه : نعيم زرزور وتغاريد بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط.الأولى ١٩٨٧ .

فقال: يا أحمر، إن عندك لأشاوى فقلب الياء واواً، وأخرجه مُخْرَج صحراء وصحارى.(٥٨)

* وقال بعض المفسرين في قوله عز وجل: "والسماء وما بناها" (٥٩) قال: ومن بناها. وكان أبو زيد يروي عن العرب أنها تقول: سبحان ما سبح الرعد بحمده. فعلى هذا أجزناه.(٦٠)

٥- *وقال ثعلب :*

* وثنا أبو العباس قال: قال سلمة: سمعت الفراء يحكى عن الكسائي أنه سمع: اسقني شربة ما يا هذا يريد شربة ماء، فقصر (٦١) .

* وقد قال الفراء {عن هل} : تكون أمراً قال: وسمعت أعرابياً يقول هل أنت ساكت، أي اسكت. مثله: " هل أنتم منتهون " (٦٢) .

٦- *وقال أبو على القالي :*

* *ما وقع بين رجل وزوجه من الخصام والمشاتمة :*

وحدثنا أبو بكر رحمه الله تعالى قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال: سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول: والله إن شربك لاشتفاف، وإن ضجعتك لانجعاف، وإن شملتك لالتفاف، وإنك لتشبع ليلة تضاف، وتنام ليلة تخاف؛ فقال لها: والله إنك لكرواء الساقين، قعواء الفخذين ، مقاء الرفغين ، مفاضة الكشحين ؛ ضيفك جائع ، وشرك شائع (٦٣).

* *"وصية بعض نساء الأعراب لابنها وقد أراد سفراً ":*

وحدثنا أبو بكر بن الأنباري قال حدّثني أبي قال حدّثني عبد الله بن محمد بن رستم قال حدّثني محمد ابن قادم النحوي قال: قال أبان بن تغلب - وكان عابداً من عباد أهل البصرة -: شهدت أعرابية وهي توصي ولدها

---

(٥٨) المقتضب ١/١٦٩ ،تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

(٥٩) الشمس : ٥ .

(٦٠) المقتضب ٤/١٨٤ .

(٦١) مجالس ثعلب ١/١٠٩ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨ .

(٦٢) السابق ٢/٦٥٦ .

(٦٣) الأمالى ١/١٣٦-١٣٧ ، تحقيق : محمد عبد الجواد الأصمعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

يـريد سـفراً وهي تقول له: أي بني! اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، فـإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك. قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها مستحسـناً لوصـيتها، فإذا هي تقول: أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضـغينة وتفـرق بـين المحبـين، وإياك والتعرض للعيوب، فتتخذ غرضاً وخليقٌ إلا يثبت الغرض على كثرة السهام؛ وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته؛ وإياك والجود بدينك والبخل بمالك، وإذا هـززت فاهـزز كـريماً يلن لهزتك، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها؛ ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت مـن غيرك فاجتنبته، فإن المرء لا يرى عيب نفس؛ ومن كانت مودته بشره وخالـف ذلـك مـنه فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. ثم أمسـكت فدنـوت منها فقلت: بالله يا أعرابية، إلا زدته في الوصية؛ فقالت: أوقـد أعجبك كلام العرب يا عراقي؟ قلت: نعم، قالت: والغدر أقبح ما تعامل بـه الـناس بيـنهم ، ومـن جمـع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها [٦٤].

٧- *وقال ابن جنى :*

* حكـى الأصمعي عن أبي عمرو قال: سمعت رجلاً من اليمن يقول: فلان لغـوب جاءته كتابي فاحتقرها . فقلت له: أتقول جاءته كتابي! قال: نعم أليس بصحيفة [٦٥].

* وحكـى أبـو العباس عن أبي عثمان عن أبي زيد قال: سمعت عمرو بن عبـيد يقـرأ: { فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ } فظننت أنه قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول: شابة ودأبة [٦٦] .

٨- *وقال ابن منظور:*

* قال ابن الأعرابي: يقال للمِسَلَّة الشَّغِيزَةُ ، قال الأزهري: هذا حرف عربي ،سمعت أعرابيّاً يقول: سَوَّيْتُ شَغِيزَةً من الطَّرْفاء لأسُفَّ بها سَفِيفَةً [٦٧] .

---

(٦٤) السابق ٢/٨٩-٩٠

(٦٥) الخصـائص ١/٢٥٠، تحقـيق محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٩

(٦٦) السابق ٣/١٥٠

(٦٧) لسـان العرب (شغز) ، تحقيق : عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٦ .

* قال أبو تراب: سمعت بعض قيس يقول اشْمَعَطَّ القومُ في الطَّلب واشْمَعَلُّوا إذا بادَرُوا فيه وتفرّقوا [٦٨] .
* قال أبو عمرو : سمعت غير واحد من الأعراب يقول: تَنَشَّأ فلان غادياً ، إذا ذهَب لحاجته [٦٩]

٩- وقال السيوطى :

* قال أبو زيد في نوادره : قلت لأعرابية بالعيون ابنة مائة سنة : مالك لا تأتين أهل الزقّة فقالت : أني أخشى أن أمشى في الزقاق . أي استحى [٧٠].
* وفي الجمهرة قال عبد الرحمن عن عمه ، قال سمعت أعرابية تقول لابنتها : هممي أصابعك في رأسي أي : حركي أصابعك فيه [٧١] .

فإذا أضفنا إلى ذلك تلك المؤلفات التي عُنيت على وجه خاص ببيان معاني العبارات والألفاظ التي كانت مستعملة على ألسنة العرب ، فإن الأمر سيزداد بيانا وتأكيدا لما قررناه ، ولنأخذ مثالا لهذا كتابي الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنبارى ، والفاخر للمفضل بن سلمة ، فقد عقد كلاهما أبوابا كثيرة جدا للعبارات التي جرت على ألسنة الناس في حياتهم اليومية ، فنجد عند ابن الأنبارى مثل:

* قولهم : حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ [٧٢]
* قول الرجل للرجل : وَيْحَكَ [٧٣]
* قولهم : قد عيل صبري [٧٤]
* قولهم : فلان أمة وحده [٧٥]
* قولهم : افعل هذا إما لا [٧٦]

---

(٦٨) السابق (شمعط) .
(٦٩) السابق (نشأ) .
(٧٠) المزهر ١/١٣٩ .
(٧١) السابق ١/١٤٠ .
(٧٢) الزاهر فى معانى كلمات الناس ١/٤ ، تحقيق : د. حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٨ .
(٧٣) السابق ١/١٣٩ .
(٧٤) السابق ١/١٤٠ .
(٧٥) السابق ١/١٤٩
(٧٦) السابق ١/١٦٠

* قولهم : لا يفضض الله فاك (٧٧)
* قولهم : جُلساءُ فلانٍ كأنّما على رؤوسِهم الطيرُ (٧٨)

.....

ونجد عند المفضل مثل :

* قولهم : حياك الله وبياك (٧٩)
* قولهم : مرحبا وأهلا (٨٠)
* قولهم : أقر الله عينه (٨١)
* قولهم : أرغم الله أنفه (٨٢)
* قولهم : فلان نسيجُ وحدِهِ (٨٣)
* قولهم : لله درُّك (٨٤)
* قولهم : الحديث ذو شجون (٨٥)
* قولهم : إني لأربأ بك عن كذا (٨٦)

فهذه النصوص المختلفة في مصادرها وسياقاتها وانتماءاتها المذهبية في اللغة (٨٧) ، وخاصة ما نقلته عن الخليل وابن منظور ؛ لأن كتابيهما يمثلان متن اللغة بخلاف المصادر الأخرى ، هذه النصوص تدل دلالة قاطعة على أن علماء العربية قد احتكموا إلى السماع عن أهل اللغة ، هذه ناحية ، والأخرى أن المادة اللغوية التي عُرضت من خلال تلك

---

(٧٧) السابق ١/١٧٤
(٧٨) السابق ١/١٨٩
(٧٩) الفاخر ص ٢ ، تحقيق عبد العليم الطحاوى ومحمد على النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
(٨٠) السابق ص ٣
(٨١) السابق ص ٤
(٨٢) السابق ص ٧
(٨٣) السابق ص ٤٠
(٨٤) السابق ص ٥٥
(٨٥) السابق ص ٥٩
(٨٦) السابق ص ١٢٥
(٨٧) فالخليل وسيبويه والمبرد يمثلون المدرسة البصرية ، والفراء وثعلب يمثلان المدرسة الكوفية ، وابن جنى يمثل المدرسة البغدادية ، والسيوطى يمثل المدرسة المصرية ، أما الباقي فهم مصادر لنقل اللغة بوجه عام دون التقيد بمذهب معين .

النصـــوص كانت تمثل لغة الناس في مواقف طبيعية كثيرة ومتباينة ، وهذا يثـــبت بـــلا شك أن العربية الفصحى كانت لغة طبيعية ، تجرى على ألسنة الناس في حياتهم اليومية ، وليس كما أراد بعض الباحثين أن يصوروا لنا.

******

٣- *التَّنَبُّه إلى اللحن والتصدِّى له من قبل الفصحاء والعلماء :*

اللحن هو الخطأ في استعمال اللغة ، أو الخروج عما درج عليه أهلها مـــن طـــرق التعبير ، وهو السبب الأساسي في جمع اللغة ، فقد خُشِى علي القـــرآن منه ، ومن ثم بدأت المحاولات الأولى لضبط اللغة منذ أبى الأسود الدؤلـــى ، ومروراً بابن أبى إسحاق الحضرمى ، ثم الخليل ، وسيبويه الذي يعـــد أول من وضع كتاباً كاملاً وصل إلينا في النحو العربي ومن جاء بعده اقتفى أثره وسار علي نهجه.

واللحـــن فـــي اللغـــة قديم ، إذ روت لنا كتب اللغة أن رجلاً لحن في حضرة النبي صلي الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل (٨٨) .

وكـــذا وُجِد اللحن فى زمن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – حيث يـــروى أن كاتب أبى موسى الأشعرى أرسل إلى عمر رسالة جاء فيها : من (أبـــو) موســـى ، فكـــتب إلـــيه عمر – رضى الله عنه – سلام الله عليك ، فاضرب كاتبك سوطا واحدا ، وأخّر عطاءه سنة (٨٩) .

ويـــروى أيضا أن عمر – رضى الله عنه – قال لقوم رموا فأساؤوا الرمى : بـــئس مـــا رميـــتم ، فقالوا : إنا قوم (متعلمين) ، فقال : والله لخطؤكم في كلامكم أشد من خطئكم في رميكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رحم الله امرأ أصلح من لسانه (٩٠) .

ويـــبدو أن هـــذا اللحن لم يكن وقفاً علي عامة الناس وبسطائهم ، فقد اتَّهـــمَ الشـــعراء بـــه أيضـــا – كمـــا تروى لنا بعض المصادر – ووقف النحويون لهم بالمرصاد يحصون عليهم زلاتهم وعثرات ألسنتهم ، فهذا عبد

---

(٨٨) السيوطى : المزهر ٣٩٦/٢

(٨٩) أبـــو الطيب : مراتب النحويين ص٦ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،ط٢ ، ١٩٧٤

(٩٠) الزجاجـــي : الإيضاح في علل النحو ص ٩٦ ، تحقيق : د. مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٥ ،١٩٨٦ .

الله ابـــن أبى إسحاق الحضرمى يخطِّئ الفرزدق حين سمعه ينشد فى مديحه لبعض بنى مروان :

وعضُّ زَمانٍ يا ابنَ مَرْوان لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ

فقـــال لـــه : علـــى أي شيء رفعت (مجلف) ؟ فيقول له الفرزدق : على ما يسوؤك [٩١] . ويعترضه مرة ثانية في قوله :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشامِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

على عمائِمِنا تُلْقى وأرْحُلِنـــــا على زَواحِفَ تُزْجَى مُخُّها رِيرِ

فـــيقول ابن أبى إسحاق : أسأت ؛ إنما هو (ريرُ) ، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع [٩٢]. وكان نتيجة هذا أن هجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبدُ اللهِ مولىً هَجَوْتُهُ ولكنَّ عبد اللهِ مولىَ مواليا [٩٣]

والعجـــيب أن ابن أبى إسحاق لم يهتم بأمر الهجاء ، ولم يلتفت إليه ، وإنما نظـــر إلـــى اللحن ، فمـا كاد يسمعه منه حتى قال : أخطأت ، إنما هو مولى موالٍ .[٩٤]

وهذا أيضا تلميذه عيسى بن عمر الثقفي هو الآخر ينتقد النابغة في قوله :

قيتُ كأنى سَاوَرَتْنى ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فى أنْيابِها السُّمُّ ناقِعُ

فيـــراه مخطـــئاً في قوله (ناقعُ) بالرفع وأنه كان من الواجب أن يقـــول (ناقعـــا) بالنصب [٩٥] ، وذلك على الحال ، وجملة (في أنيابها السم) خبر مقدم ومبتدأ مؤخر .

فهـــذا كلـــه يشير إلى وقوع اللحن في الكلام العربي سواء كان فى ظاهر اللغة الأدبية الممثلة في الشعر ، أوفى الكلام العادي ، وهذا هو الذي نود التركيز عليه .

---

(٩١) المرزبانـــى :الموشـــح ص١٣٦ ، تحقـــيق : على البجاوى ، نهضة مصر القاهرة .

(٩٢) ابـــن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ١٧/١ ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤.

(٩٣) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ١٨/١ .

(٩٤) د. شـــوقى ضـــيف : المـــدارس النحوية ص٢٤ ، المدارس النحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط. الثانية ١٩٧٢ .

(٩٥) ابن سلام الجمحى :طبقات فحول الشعراء ١٦/١،المرزبانى :الموشح ص٤٢

ويجـــب ألا ننسى – ونحن فى سياق الحديث عن اللحن – أن نذكر أن كثيـــرا من اللغويين قد التفت إلى وجود بعض صور اللحن فى كلام العرب خاصة العامة منهم ، فوضعوا كتبا تعالج هذه الظاهرة ، فمن ذلك :

١ – البهاء فيما تلحن فيه العامة للفراء (٩٦)
٢ – ما يلحن فيه العامة للأصمعي (٩٧)
٣– ما خالفت فيه العامة لغات العرب لأبى عبيد القاسم بن سلام (٩٨)
٤ – لحن العامة لأبى حنيفة الدينورى (٩٩)
٥ – لحن العامة لأبى بكر الإشبيلى (١٠٠)
٦ – لحن العامة لابن هشام اللخمى (١٠١)
٧– لحن الخاصة لأبى هلال العسكري (١٠٢)
٨– درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى وهو مطبوع معروف .

.....

يضـــاف إلـــى هـــذا كلـــه بعض المؤلفات التي اهتمت ببيان اللغة الصحيحة الفصيحة ، وإن لم يرد في عناوينها كلمة اللحن أو ما في معناها ، مثل :

* إصلاح المنطق لابن السكيت ، وهو مطبوع معروف .
* الفصيح لثعلب ، وهو مطبوع معروف أيضا .
* أدب الكاتـــب لابـــن قتيـــبة – وفـــيه كتاب تقويم اللسان – وهو مطبوع معروف أيضا .
* المعرب للجواليقى ، وهو مطبوع معروف أيضا.

---

(٩٦) ذكـــره الســـيوطى في بغية الوعاة ٣٣٣/٢ ، تحقيـــق : محمـــد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ .
(٩٧) ذكره ابـــن يعيش في شرح المفصل ٨/١ ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د. ط ، د . ت
(٩٨) ذكره ابن منظور في لسان العرب (قزز) .
(٩٩) ذكره حاجى خليفى في كشف الظنون ١٥٤٨/٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢
(١٠٠) السابق والصفحة
(١٠١) السابق والصفحة
(١٠٢) السابق والصفحة

* شـرح مـا يقـع فـيه التصحيف والتحريف لأبى هلال العسكري ، وهو مطبوع معروف أيضا.

والـذي يطالع هذه المؤلفات يدرك أنها " لم تهدف إلى دراسة العامية لذاتها كما فعل المستشرقون ومن حذا حذوهم في عصرنا ، بل كانت تهدف إلى خدمة الفصحى عن طريق إصلاح ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم ، لأن العلمـاء كانوا في ذلك الوقت يعدون العامية تحريفا للفصحى ، لا لغة جديدة تخـتلف عـن الفصـحى اختلافا جوهريا ، ولذلك كانت مؤلفاتهم فرعا من دراسـتهم للفصـحى ، ومـن خدمـتهم لهـا ومحافظتهم عليها سالمة من التحريف واللحن والدخيل ... " (١٠٣)

ولننظـر فيما يأتى في بعض الأمثلة من اللغة التي وقع فيها اللحن ، وصححه العلماء ، خاصة تلك اللغة العادية التي استعملها العامة من العرب غيـر اللغة الأدبية ، وذلك من كتاب تقويم اللسان لابن الجوزى ، يقول ابن الجوزى :

* تقـول : استُهْتِر فلان بكذا ، بضم التاء الأولى وكسر الثانية ، على ما لم يُسَمَّ فاعله ، والعامة تفتح التاءين ، وهو خطأ . (١٠٤)
* وتقول : هذه أشفار العين ، تعنى حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر ، والعامة تظنها الشعر النابت ، وهو خطأ (١٠٥) .
* وتقـول: هـذه الأرَضون سبع بفتح الراء ، والعامة تسكنها ، ومنهم من يجمـع الأرض على أراض وهو غلط ، لأن الأرض ثلاثية ، والثلاثي لا يجمع على أفاعل (١٠٦)
* وتقـول : قرأت آل حاميم ، قال ابن مسعود إذا وقعت فى آل حاميم وقعت فـي روضـات دمـثات ، والعامة تقول : قرأت الحواميم وليس من كلام العرب(١٠٧) .
* وتقول : أرعِنى سمعك ، والعامة تقول : أعرنى سمعك . (١٠٨)

---

(١٠٣) د. نفوسة زكريا ، تاريخ الدعوة إلى العامية ص٧ .
(١٠٤) تقويم اللسان ص٥٩ .
(١٠٥) السابق ص٧٢ .
(١٠٦) السابق ص٧٢ .
(١٠٧) السابق ص٧٢
(١٠٨) السابق ص٧٣

* وتقـول للقـائم : اقعد ولا تقل اجلس إلا لمن كان نائما أو ساجدا ، لأن القعود انتقال من عُلو إلى سُفل ، والجلوس من سفل إلى علو.(١٠٩)

******

فهـذه الأمـثلة التي قدمتها تبين وتؤكد أن تلك المؤلفات لم تقم على تصـحيح أخطـاء الشعراء والبلغاء من العرب ، ولكنها قامت على تصحيح أخطـاء العامة ، أي أهل اللغة الذين يتحدثونها حديثا يوميا عاديا ، وهذا ما أشـارت إليه عناوينها ومادتها التي أخذنا أمثلة منها ، فلا سبيل إذن إلا أن نـدرك أن الفصـحى كانت هي الأساس والمعوّل عليه ، وإلا ما شغل اللحن بـال هـؤلاء الفصحاء والعلماء ، فنبهوا عليه ، وحذروا منه ، وجدوا في تصـحيحه وتنقـية العربية منه ، إلى هذا الحد الذي رأيناه ، ومن ثم يمكننا القـول : إن العربية الفصحى كانت مستعملة علي الألسنة استعمالاً طبيعياً ، وليس كما زعم الآخرون غير ذلك .

******

٤- *دليـل عقلي*

إن القرآن الكريم قد نص في كثير من آياته على أنه عربي ، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (١١٠)

وقـال: (وَلَقَـدْ نَعْلَـمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) (١١١)

وقـال: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (١١٢)

وقال: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) (١١٣)

وقال: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١١٤)

إلى غير ذلك من الآيات التى تقرر عربية هذا القرآن (١١٥) .

---

(١٠٩) السابق ص٧٤
(١١٠) يوسف : ٢
(١١١) النحل : ١٠٣
(١١٢) طـه : ١١٣
(١١٣) الشعراء : ١٩٥
(١١٤) الزمر : ٢٨
(١١٥) فصلت: ٣ ، الشورى : ٧ ، الزخرف : ٣ ، الأحقاف : ١٢

هذه واحدة ، والأخرى أن الله عز وجل قد تحدى بهذا القرآن العرب خاصة فضلا عن الإنس والجن عامة فقال: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) (١١٦) .

وقال : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (١١٧) .

وقال : (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (١١٨)

إذا عرفنا هذا فإننا نسأل: أكان هذا التحدي للعرب كافة ، أم أن الله عز وجل تحدى به الشعراء والبلغاء منهم خاصة ، وهم الذين يقدرون على صياغة تلك اللغة الأدبية التى قال بها أصحاب تلك الدعاوى ؟ والإجابة أن الله تحدى به العرب كافة ، ولم يخص بذلك هؤلاء الشعراء والبلغاء .

فإذا اتفقنا على هذين الأمرين :

* أن لغة القرآن هي العربية .

* وأن الله تحدى به العرب كافة ، ولم يخص بذلك الشعراء والبلغاء .

وإذا أضفنا إلى هذا أن التحدي إنما يكون فيما يستطيعه المُتَحَدَّى ، فإن ذلك كله يجعلنا نصل إلى النتيجة التالية :

أن العربية كانت هي اللغة المستعملة بين العرب جميعا ، وليست لغة فئة معينة منهم وهم الشعراء والبلغاء أصحاب اللغة الأدبية ، ومن ثم يمكن القول : إن العربية كانت لغة كلام حي منطوق في مختلف المواقف الطبيعية ، وإلا فكيف نفهم هذا التحدي العام والشامل الذي سبق أن أشرنا إليه ؟

******

ثانيا : مناقشة بعض الأفكار التي طُرحت في كلام من يذهب إلى أن اللغة العربية الفصحى لم تكن لغة طبيعية :

ذكرت من قبل أربعة من الأدلة التي أراها كافية لإثبات أن العربية الفصحى كانت لغة طبيعية وهى الحديث النبوي والسماع والتنبه إلى اللحن

(١١٦) البقرة : ٢٣
(١١٧) هود : ١٣
(١١٨) الإسراء ٨٨

، والدلـيل العقلي ، وفيما يأتى سأرد على أربع من أهم الأفكار التي وردت في كلام من ذهب إلى أن اللغة العربية الفصحى لم تكن لغة طبيعية :

١- الاحـتجاج بخلـو اللغـة الفصحى - خاصة الشعر- من اللهجات المحلية :

احـتج بعـض الباحثين مثل د. إبراهيم أنيس ود. رمضان عبد التواب بـأن خلو اللغة الفصحى - أو الأدبية على حد تعبيرهما - وبخاصة الشعر من اللهجات المحلية دليل على أن هذه اللغة لم تكن لغة سليقة .

وأقول إن الأستاذ أحمد أمين قد أشار من قبلهما إلى هذه الفكرة ، ثم حاول أن يجد مبررا يفسر به ، قال :

" فـإذا نحن عدنا إلى ما روى من هذه القبائل من شعر لم نجد لما حدثونا بـه أثرا ، فنرجع إلى شعراء تميم فلا نجد عنعنة ، وإلى شعراء ربيعة فلا نجـد كشكشـة ، وهكـذا ، فما علة ذلك ؟ وقد كان هذا في شعر الجاهليين والإسـلاميين على السواء ، وقد يقال إن الرواة غيروا ما ورد ، ونطقوا به على وفاق اللغة الفصحى ، ففتحوا مثلا ما ورد من التاءات المكسورة [١١٩] ، وحوروا عنَّ إلى أنَّ [١٢٠] وقد ورد بالفعل روايتان لقول ذي الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ، وأأن ترسمت

وقول ابن هرمة :

أعن تغنت على ساق مطوقة، وأأن تغنت ." [١٢١]

وأنا لا أريد أن أقول مثلما قال الأستاذ أحمد أمين ولا أفسر بمثل ما فسر به ، ليس لأنه قال في عقب ذلك :

" ولكـن ذلك لا يحل الإشكال ، فهناك كلمات لو نطق بها الشاعر على وفاق لغـته وأراد الـراوي أن يحولها إلى اللغة الفصحى لاختل الوزن ككشكشة

---

(١١٩) يقصـد تلتلة بهراء في كسر أحرف المضارعة عدا الياء حيث يقولون في نحـو تَعلم : تِعلم بكسر التاء ، انظر : ابن جنى : الخصائص ١٣/٢ ، د. عبد الغفار حامد هلال ، اللهجات العربية نشأة وتطورا ، ص ٢٩٠ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ط٢ ١٩٩٣ .

(١٢٠) يقصـد عنعـنة تمـيم ومـن جاورهم من أسد وقيس ، انظر : ابن جنى : الخصـائص ١٣/٢ ، د. عـبد الغفار حامد هلال ، اللهجات العربية نشأة وتطورا ص ١٦٨ .

(١٢١) ضحى الإسلام ٢/ ٢٥٤

ربيعة وكسكسة هوازن ، فلو قال الشاعر إنكش وصورها الراوي إنك لانكسر البيت ." (١٢٢)

ولكن لأن فيه اتهاما لرواة اللغة بالتبديل والتحريف وعدم الثقة بهم ، ليس في الشعر فحسب ، ولكن في نصوص اللغة بعامة ، وسوف يترتب على ذلك الشك في كل ما نقلوا منها ، وقد عقد ابن جنى بابا في كتابه الخصائص بعنوان : " الوثوق في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة " بين فيه أن الرواة يجب الثقة بهم والاطمئنان لنقلهم ، فقد كانوا من الدين والتقوى والورع بمكان يمنعهم من الكذب والتلفيق . (١٢٣)

وإن ما يمكنني أن أرد به أن الشعر قبل أي شيء فن العرب الأول ودرة تاج بيانهم وفصاحتهم ، ويكفى أنهم كانوا يعقدون له المحافل والمآدب ، ومن ثم كان له عندهم طبيعة خاصة ، ومن أجل ذلك كانوا يتخيرون ألفاظه وتراكيبه وأوزانه وقوافيه ، بحيث تكون القصيدة أحسن وقعا وأكثر انتشارا لدى السامعين ، وهذا – في رأيي- يتطلب أن ينحّى الشاعر أحيانا من شعره بعض الخصائص اللغوية التي يستعملها في غير الشعر ، والتي هي أيضا جزء لا ينفصل من اللغة العربية الفصحى .

******

٢ – *الاحتجاج بفكرة السليقة اللغوية وتعارضها مع اللحن فى اللغة :*

احتج د. إبراهيم أنيس ود. رمضان عبد التواب – كما رأينا أيضا- بهذه الفكرة وهى أن صاحب اللغة الذي تكون اللغة عنده سليقة لا يخطئ في ألفاظ اللغة ولا في تراكيبها ، ومن ثم فقد ذهبا إلى أن العربية الفصحى كانت لغة أدبية فحسب ولم تكن لغة عادية ، وذلك لورود بعض الأخطاء التي عرضنا لها من قبل في كلام بعض العرب من الشعراء وغيرهم ، فلو كانت تلك اللغة التي يتحدثونها لغة سليقة فإنه يستحيل عليهم الخطأ .

وأقول إن هذا الكلام يحتوى – في رأيي – على قدر كبير من المبالغة ، وذلك لأن صاحب السليقة اللغوية قد يزل أو يخطئ في حديثه دون أن يشعر في كثير من الأحيان ، ولينظر كل واحد منا إلي نفسه أو إلى غيره

---

(١٢٢) السابق والصفحة

(١٢٣) الخصائص ٣/٣١٢-٣١٦

في أثناء حديثه باللغة العامية ، وهى سليقة – بلا شك – فسيجد أنه يخطئ دون أن يدرك ، فلماذا نستبعد ذلك على أهل العربية .

******

٣- *الاحتجاج بوقوع اللحن في شعر بعض الفحول مثل بشر بن أبى خازم والنابغة الذبيانى والفرزدق على الفكرة السابقة نفسها .*

فأقول : لماذا لا ننظر إلى ذلك كله على أنه نوع من أنواع الترخص في العلامة الإعرابية لثقتهم بأن المعنى واضح ، وأن السامع سيفهمه ؟ ولا سيما إذا كان هذا الذي عدوه لحنا في أشعارهم إنما هو بسبب الضرورة الشعرية التي تفرض على الشاعر أحيانا كثيرا من الأمور غير المعتادة .

وإذا كان مثل هذا الترخص قد يحدث أحيانا فى غير الشعر كالقرآن الكريم والنثر ، فلماذا نستبعده فى الشعر ، وهو كما قالوا موضع الضرورات .

* انظر مثلا إلى قراءة بعض القراء (الحمدِ لِله رب العالمين) بكسر الدال من الحمد [١٢٤] ، مع أن (الحمد) مبتدأ وحقه الرفع بعلامته وهى الضمة – كما في القراءة المشهورة – ومع ذلك جاءت الدال مكسورة في هذه القراءة ، وقد خرجها العلماء بأنها كسرت للإتباع أي لمناسبة اللام المكسورة التي تليها من قوله (لله) [١٢٥] .

* وانظر إلى قول العرب – وهو من النثر – " هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " بجر خرب مع أنها صفة للجحر لا صفة للضب أي أن حقها الرفع ، وقد ذكر جمهور النحويين من البصريين والكوفيين أن هذا الجر على المجاورة ، ومثلوا له أيضا بقول الشاعر :

---

(١٢٤) الفاتحة : ٢ ، وهى قراءة إبراهيم بن أبى عبلة وزيد بن على والحسن البصري ، انظر ابن جنى : المحتسب ٣٧/١ ، تحقيق على النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبى ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٩ .

(١٢٥) العكبرى : إعراب القراءات الشواذ ٨٧/١ ، تحقيق محمد السيد عزوز ، عالم الكتب ، القاهرة ط١ ، ١٩٩٦، أبو حيان : البحر المحيط ١٣١/١ ، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ، ١٩٩٣

يا صَاح بلِّغ ذوي الزَّوجاتِ كُلَّهمُ أن ليس وصل إذا انحلت عرى الذنب

بجـر "كلهـم" على المجاورة للزوجات ، فإنه في الأصل توكيد لـ "ذوي" المنصوب لا للزوجات ، ولو كان للزوجات لقال كلّهن (١٢٦)

* وقـد حمـل بعض النحويين على ذلك قوله تعالى (وامسحوا برؤوسكم وأرجلِكـم إلـى الكعبـين)(١٢٧) بجر "أرجلكم" في بعض القراءات (١٢٨) ، فقالـوا إنهـا فـي الأصل معطوفة على "وجوهكم" و "أيديكم" أي أن الأرجل مغسولة ، ولكنها لما جاورت رؤوسكم المجرورة جُرَّت مثلها (١٢٩) .

غير أن بعضهم ضعَّف هذا الرأي لأنه لا يجوز القول به في القرآن . (١٣٠)

* ومـن التـرخص فى العلامة الإعرابية أيضا نصب الفاعل ورفع المفعول عـند أمن اللبس ، كقولهم : خرق الثوبُ المسمارَ ، وكسر الزجاجُ الحجرَ ، وقول الشاعر :

مثلُ القنافذِ هَدَّاجون قد بَلغت نَجْران أو بَلغتْ سوآتِهم هَجَرُ

---

(١٢٦) انظـر ابـن هشام : مغنى اللبيب ٢/ ٧٨٨- ٧٨٩ ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٩١ د . ط ، السيوطى : همـع الهوامـع ٢/ ٤٤٠-٤٤١ ، تحقيق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ، ١٩٩٨

(١٢٧) المائدة : ٦

(١٢٨) هـي قـراءة ابن كثير وأبى عمرو وحمزة . انظر: الدانى : التيسير في القراءات السبع ص ٨٢ ،عنى بتصحيحه أوتو يرتزل ، دار الكتب العلمية ، = بيـروت ط١ ، ١٩٩٦، ابن الجزرى: النشر فى القراءات العشر ١٩١/٢ دار الكتب العلمية ط١ ، ١٩٩٨

(١٢٩) انظر الأخفش : معاني القرآن ٤٦٦/٢ ، تحقيق : د. عبد الأمير محمد أمير الورد، عالم الكتب ، بيروت ط١ ، ١٩٨٥، أبا عبيدة :مجاز القرآن ١٥٥/١ ، تحقـيق د. محمد فؤاد سزكين ، الخانجى ، القاهرة ١٩٥٤ ، العكبرى : التبـيان فـي إعـراب القرآن ٢٠٩/١ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ط١ ، ١٩٧٩ .

(١٣٠) انظر على سبيل المثال :الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ١٥٣/٢ تحقيق : د. عـبد الجلـيل شلبى عالم الكتب ، بيروت ط١ ، ١٩٨٨، مكي بن أبى طالـب : مشـكل إعـراب القرآن ٢٢٠/١ ، تحقيق : د. حاتم الضامن ، الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٧ ، ابن الأنبارى : البيان في غريب إعراب القـرآن ٢٨٥/١ ، تحقيق : د. طه عبد الحميد طه ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٩

مع أن "الثوب" مفعول به وكذلك "الزجاج" و"هجر" ، و"المسمار" فاعل وكذلك "الحجر" و"سوءاتهم" .

كما سُمِع أيضا نصبهما كقول الشاعر :

قد سالم الحياتِ منه القدما الأفعوان والشجاع الشجعما

حيث نصب "الحيات" و"القدم" مع كونه "القدم" فاعلا .(١٣١)

* وانظر أيضا إلى قول زهير بن أبى سلمى وهو من فحول الشعراء :

بدا لى أنى لست مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئا إذا كان جائيا

حيث عطف "سابق" بالجر على " مدركَ" المنصوب خبرا لليس ، وكان القياس يقضى بنصبه فيقول سابقا ، وخرجه النحويون على أن الشاعر كأنه قال : بدا لي أنى لست بمدركٍ ما مضى ....ولا سابق ، وعللوا ذلك بأن الباء تدخل كثيرا في خبر ليس ، وسموا ذلك العطف على التوهم (١٣٢) .

وليس فى البيت ما يضطر الشاعر لهذا ، ومن ثم فلا نقول إنه ضرورة ، لأن التنوين موجود سواء بالنصب أو الجر.

أفلا يُعدُّ هذا من قبيل الترخص أو التساهل في العلامة الإعرابية لوضوح المعنى وأمن اللبس ؟ فلماذا لم يقل النحويون إن هذه الأبيات لحن ؟ كما رأى د. رمضان عبد التواب ، حين تحدث عن وقوع اللحن فيما ذكره من إقواء الشعراء ، وبنى على ذلك أن العربية الفصحى لم تكن لغة سليقة لهؤلاء ؟ فالمسألة إذن تحتاج إلى نظر .

وبناء على ذلك يمكننا أن نقبل ما وجدناه عند بعض الشعراء ممن سبق ذكرهم في احتجاج المشككين وغيرهم من الشعراء على أنه نوع من التساهل في حركة الإعراب ، لوضوح المعنى وأمن اللبس من ناحية ، وللضرورة الشعرية من ناحية أخرى ، ولا نعد ذلك من قبيل اللحن فى اللغة ، لنرتب عليه أن مثل هؤلاء الفحول لا ينطقون العربية الفصحى بالسليقة ، فذلك أمر يصعب تصوره إن لم يكن مستحيلا ، لا سيما أن هذه الأبيات

---

(١٣١) انظر ابن هشام : مغنى اللبيب ٨٠٧/٢ ، والسيوط : همع الهوامع ٦/٢

(١٣٢) انظر ابن يعيش : شرح المفصل ٥٢/٢ ، الأشمونى : شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ٢٣٥/٢ ، ومعه حاشية الصبان على شرح الأشمونى وشرح الشواهد للعينى ، مطبعة عيسى البابى الحبى ، القاهرة ، ابن هشام : مغنى اللبيب ٥٤٩/٢ .

نادرة جدا قياسا ببقية أشعارهم ، ولا يصح أن نعد النادر ظاهرة نبنى عليها مثل هذا الحكم .

وأخيـــرا إذا سنحكم على النابغة والفرزق وغيرهما ممن قيل باللحن فى أشعارهم بأن العربية لم تكن لغة سليقة لهم ، وهم من فحول الشعراء الذين يُحـــتج بشـــعرهم علـــى اللغـــة ، فمن إذن يمكن أن تكون لغته العربية لغة سليقة ؟! إذن فلا مبرر لإطلاق هذا الحكم .

٤- الشك في وجود الإعراب في اللغة العربية ، وأن قواعده من صنع النحاة .

أثـــار هذه الفكرة بعض المستشرقين كما سبق أن رأينا ، وإنني لن أرد علـــيهم بكـــلام مـــن عـــندي ، ولكنى سأقابل كلامهم بكلام لمستشرقين أمـــثالهم ، غيـــر أن الأخيـــرين كانوا من المنصفين الذين يحكّمون المنهج العلمي في البحث .

فقـــد دافعـــوا عن أصالة الإعراب في العربية وهو من أهم خصائص اللغـــة العـــربية الفصحى ، نرى هذا عند "تولدكه" الذي يرى في مقالة له بعـــنوان " ملاحظـــات علـــى لغة العرب القدامى " أنه من غير المعقول أن يكـــون محمـــدا صـــلى الله عليه وسلم قد استخدم في القرآن لغة تخالف كل المخالفـــة تلـــك اللغة التي كانت شائعة في مكة آنذاك ، وأن يكون قد اعتنى بالإعراب هذه العناية ، وقومه لا يستخدمون هذا الإعراب في كلامهم ".

كمـــا يرى أيضا " أن شعر ذلك العصر كان يمثل لغة البدو التي كانوا يـــتحدثون بها زمنا طويلا بعد ذلك ، ولا يغير من هذه القضية شيئا أن لغة الشـــعر بهـــا بعـــض الاختلاف عن لغة الحياة العامة ، وأن الشاعر ما كان يضـــطره وزن الشـــعر وأسلوبه إلى الإتيان بتعبيرات خارجة عن المألوف وغيـــر ذلـــك من الأمور التي لاحظها كذلك قدامى اللغويين العرب وسجلوها بدقة .

ويرى نولدكه كذلك أنه " من الخطأ الشنيع الاعتقاد بأن اللغة الحية في عهد النبـــي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فيها إعراب فإن العلماء في عهد هـــارون الرشـــيد قـــد وجدوا الإعراب بكل دقائقه لدى البدو ، ولكن ظاهرة الوقف الشائعة كثيرا في الحديث اليومي قد عودت الأذن على سماع الصيغ الخالـــية من الإعراب ، فاستطاع أحد الشعراء استخدامها عند اتصال الكلام

كـذلك ، وعلـى الأخـص في صيغ المضارع التي لا تتلاءم كثيرا مع وزن الشعر " .

كمـا يـرى نـولدكه في الفصل الذي كتبه عن "لغة القرآن" في كتابه مقالات جديدة في علم اللغات السامية أنه لو كان النبي صلى الله عليه وسلم أو أحـد معاصـريه من المؤمنيـن قـد نطق القرآن دون إعراب لكان من غيـر الممكن أن تضيع الروايـات الخاصـة بذلك ، دون أن يبقى لنـا آثار منها " .(١٣٣)

وهكـذا نرى إنصاف المستشرقين واضحا فيما سبق ، وما ذاك إلا ما يسـتوجبه الـبحث العلمي الخالص من الهوى والتعصب ، هذا الهوى وذاك التعصـب اللـذان جعلا بعض المستشرقين يقولون " إن قواعد الإعراب فى اللغة الفصحى لم تكن مراعاة فى لهجات الحديث ولا فى لغة الكتابة ، وإنما خلقهـا الـنحاة خلقـا قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة بنظم اللغـات الإغـريقية ، حتـى يكمل نقصها فى نظرهم ، وتسمو إلى مصاف اللغات الراقية" (١٣٤).

وقالـو أيضـا " إن قواعد هذا شأنها تشعبا ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت مـن تلقاء نفسها ، ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب فى عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها" (١٣٥) .

فهـم – كمـا يـبدو من كلامهم – ينظرون إلى العرب ولغتهم نظرة احتقار وازدراء ، فيرونهم أمة متخلفة لا فكر لها ولا حضارة ، ولا تستطيع عقولهم أن تنتج لغة أو علما أو أدبا رفيعا .

وأنا لا أريد أن أناقش هذا الافتراء بكلام من عندي ، ولكن سأرد فقط بكلام واحـد من المستشرقين المنصفين أيضا ، ليكون قد شهد شاهد من أهلها ، يقول جوستاف لوبون :

" رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد ، وحجتهم في ذلك أن العرب قبل ظهور محمد إذ كانوا مؤلفين من قبائل متنقلة عاطلة من العنعـنات ، كانوا من الأجلاف الذين لم تع ذاكرة الإنسان شيئا عنهم . وإلى

(١٣٣) د. رمضان عبد التواب : فصول فى فقه العربية ص ٣٨٠-٣٨١
(١٣٤) د . على عبد الواحد وافى فقه اللغة ص ٢١١
(١٣٥) السابق والصفحة

مثل هذا الرأي ذهب بعض الأذكياء المعاصرين ، ومنهم مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير رينان ، الذي قال : " لا مكان للعرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مبدعة ، ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس الميلادي " .

وعندنا أن هذا الرأي فاسد أول وهلة ، ولو لم نعلم شيئا عن ماضي العرب؛ فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطيء ، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج ، ولا تُبلغ درجة التطور العالية التي تبدو للعيان إلا بعد الصمود في درجات أخرى .

وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة ثمرة ماض طويل ، ولا يعنى جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده ، وتؤدى مباحث العلم في الغالب إلى عرض هذا الماضي للناظرين.

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك ، وإن عسر علينا أن نقول كيف كانت هذه الحضارة ، فقد أثبتت الآثار والوثائق التي بأيدينا وجودها ، وأنها لم تكن – على ما يحتمل – دون حضارة الآشوريين وحضارة البابليين اللتين ظهر شأنهما حديثا ، بفضل علم الآثار بعد أن كانتا مجهولتين .....ويكفى لتمثلها (يقصد حضارة العرب قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوى صلات تجارية بأرقي أمم العالم منذ القديم ، فاستطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ .

والحق أن الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتى عفوا ، وهى تُتَّخذ دليلا على ماض طويل ، وينشأ عن اتصال أمة بأرقي الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذ كانت أهلا لذلك ، وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس .

ولا ريب في أن العرب ، الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ، ويبدعوا حضارة عالية جديدة ، من ذوى القرائح التي لا تتم إلا بتوالي الوراثة ، بثقافة سابقة مستمرة " (١٣٦) .

هكذا حقا يكون الإنصاف ، وهكذا يجب أن يكون البحث العلمي الذي يلتزم الحيدة ويبتعد عن الهوى والتعصب .

والحقيقة أن رينان هذا الذي ذكره لوبون كان واحدا من أولئك المتعصبين ، الذين أبعدهم تعصبهم عن أصول منهج البحث العلمي الذي يقف على قمته مبدأ الموضوعية والحيدة العلمية ، وقد شهد بذلك أيضا أحد المنصفين من المستشرقين هو ولفنسون حين قال :

" لقد أسرف العالم رينان فيما سماه مميزات العقلية السامية التى ذكرها فى كتابه (hestoire des langues semitiques) ، فقد خالف بمميزاته هذه ما عرفه الناس جميعا من قبله ومن بعده بل خالف ما يقتضيه العقل والعلم الصحيح ، وما يدعو إليه العدل والإنصاف .

والذي حمله على هذا الإسراف هو بغضه الشديد للشرقيين وتصبه الفاضح لعنصره وقوميته اللذين دفعاه إلى مخالفة العدل والخروج على مقتضى الإنصاف .

انظر إليه وهو يتخذ العقلية العربية والإسرائيلية مقياسا لجميع العقليات السامية ، فمن أين له أن العرب واليهود يمثلان له جميع الأمم السامية الغابرة تمثيلا صحيحا كاملا ، وانظر إليه وهو يعد من مميزات اليهود والعرب مميزات عدها غيره من مميزات اليونان والرومان .

يرى رينان من صفات الساميين الضعف والفشل فى كل شيء ويتخذ عقيدة التوحيد دليلا على ذلك ، إذ يقول : إن ظهور التوحيد عند بنى إسرائيل فى العصور القديمة دليل على أن خيالهم ضئيل ذو لون واحد ، بخلاف الأمم الوثنية فإن خيالها واسع قوى ... " (١٣٧) .

****

(١٣٦) حضارة العرب ص ٨٧-٨٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م .

(١٣٧) تاريخ اللغات السامية ص ١٣

وهكـذا وبعـد هذا الذي قدمته من المناقشات والأدلة يمكنني القول باطمئـنان : إن العـربية الفصحى كانت لغة طبيعية ؛ أي أنها لغة سليقة ، وهـي لغـة اتصال حي منطوق بين الناس في حياتهم العادية ، وليست كما رأى بعـض الباحثـين أنها كانت لغة أدبية نموذجية مشتركة صنعها النحاة والشعراء .

ولكـن هـذا لا يعنى أن تلك اللغة كانت كلغة القرآن الكريم ، فالقرآن نص لغوى معجز بطبيعته ، والله عز وجل تحدى به الإنس والجن كما سبق أن بيَّـنا ، ولم تكن أيضاً كلغة الشعر ؛ لأن لغة الشعر ذات طبيعية خاصة ؛ فهـي تعـتمد علي المحسنات اللفظية والاستعارات والوزن والقافية ، وهى أشياء ضرورية بها يتفاضل الشعراء وبها يُقدَّم شاعر علي غيره .

ولا ينفـى هـذا الحكـم وجـود اللهجات ، فكل بيئة كانت لها بعض الخصائص اللغوية التي تعد هي أيضا حجة ويحكم لها بالفصاحة ، ألم يعقد ابـن جنـى في كتابه الخصائص بابا بعنوان بـاب " اختلاف اللغات وكلها حجة " وقال :

" اعلـم أن سـعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال ما يقبلها القياس ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله. ولـيس لـك أن تـرد إحـدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من رسـيلتها. لكـن غايـة مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها وتعـتقد أن أقـوى القياسـين أقـبل لها وأشد أنسا بها ، فأما رد إحداهما بالأخـرى فـلا. أولا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف " (١٣٨).

فاللهجات إذن من العربية الفصحى ، ومن يدعى خلاف ذلك فقد ابتعد عن الصواب ، ويؤكد هذا أيضا ما وردت به القراءات القرآنية .

* فمـن ذلك قراءة بعض القراء (نِستعين) (١٣٩) بكسر نون المضارع (١٤٠) وهـى لهجـة مـن لهجـات العرب ، عُرفت بالتلتلة ونسبها اللغويون إلى بهراء (١٤١) ، وإلى قيس وتميم وأسد وربيعة (١٤٢) .

---

(١٣٨) الخصائص ١٢/٢

(١٣٩) الفاتحة : ٥

* ومن ذلك أيضا قراءة بعض القراء (فمن اتبع هُدَىَّ) [١٤٣] بتشديد الياء [١٤٤] وهى لهجة لهذيل [١٤٥] .

* وقراءة بعض القراء (اثنتا عشرة عينا) [١٤٦] بكسر الشين [١٤٧] وهى لهجة لتميم والسكون لهجة الحجاز [١٤٨] . فهذا وغيره كثير ورد فى القرآن [١٤٩] وهو أفصح اللغة على الإطلاق .

وكذلك وردت اللهجات فى أحاديث الرسول صلي الله عليه وسلم وهو أفصح العرب .

* فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " لا وتران في ليلة " [١٥٠] ، بإثبات الألف للمثنى وهو في موضع نصب ؛ لأنه اسم لا النافية للجنس التي تعمل عمل إن ، والقياس : لا (وترين) ويبدو أنه أجراها علي لغة بلحارث بن كعب الذين يثبون الألف للمثنى في جميع حالاته كما يتضح ذلك في قول الشاعر :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها [١٥١]

---

(١٤٠) وهى قراءة عمرو بن عبيد وزر بن حبيش ويحيى بن وثاب والنخعى والأعمش . أبو حيان : البحر المحيط ١٤١/١ .

(١٤١) ابن جنى : الخصائص ١٣/٢.

(١٤٢) أبو حيان : البحر المحيط ١٤١/١

(١٤٣) البقرة : ٣٨

(١٤٤) وهى قراءة أبى الطفيل وعبد الله بن أبى إسحاق والجحدرى وعيسى الثقفى. ابن جنى : المحتسب ٧٦/١.

(١٤٥) ابن جنى : المحتسب ٧٦/١ .

(١٤٦) الأعراف : ١٦٠

(١٤٧) وهى قراءة يحيى والأعمش وطلحة ، ابن جنى : المحتسب ٢٦١/١ ، وأبو حيان : البحر المحيط ٤٠٥/٤

(١٤٨) ابن جنى : المحتسب ٢٦١/١ ، وأبو حيان : البحر المحيط ٤٠٥/٥

(١٤٩) انظر فى هذا كتاب د. عبده الراجحى : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٥٠) الترمذى (كتاب الصلاة باب ما جاء لا وتران فى ليلة) ٣٣٤/١، مع شرحه "تحفة الأحوذى" للمباركفورى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ط٣، ١٩٨٤، وانظر أيضا النسائى : سنن النسائى (كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوترين فى ليلة) ٢٢٩/٣-٢٣٠ ، مع شرحه للسيوطى وحاشية السندى ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

(١٥١) انظر : ابن هشام : مغنى اللبيب ٤٨/١

بإثبات الألف في غايتاها وكان القياس يقتضى أن يقول (غايتيها) .

* ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " ليس من امبر امصيام في امسفر "[١٥٢] بإبدال اللام من "ال" التي للتعريف ميما ، وذلك على لغة حمير [١٥٣]

وفي هذا دليل علي أن اللهجات فصيحة وحجة.

******

وقبل أن أصل إلى نهاية هذا البحث أود أن أطرح سؤالا ينبغي ألا نهمل الإجابة عليه وهو :

هل العربية الفصحى – أو الفصيحة على الأقل – لغة طبيعية فى العصر الحديث أيضا ؟

وقد تناول هذا الموضوع بطريقة مباشرة أستاذنا الدكتور عبده الراجحى فقال فى إجابته على سؤال ماذا نقصد بالعربية ؟ قال :

" قد يبدو هذا سؤالا غريبا حقا ! نعم هو سؤال غريب ، لكننا مضطرون إلى إيراده ؛ لأن كثيرين أثاروا في السنوات الأخيرة لغطا كثيرا حول العربية ، وقد صدروا أول الأمر عن علم اللغة البنائى الذي ركز اهتمامه على درس اللغة في صورتها المنطوقة ، فقالوا إن العربية ليست لغة اتصال منطوق بين الناس في حياتهم اليومية ، إنما هي لغة خاصة مكتوبة في الأغلب ، لا يستطيع استعمالها أحد إلا بعد جهد جهيد ، ومن هنا رأينا معظم المبتعثين إلى الغرب لدراسة علم اللغة منذ أواخر الأربعينيات إلى الآن يوجهون إلى درس اللهجات العامية في أقطار عربية مختلفة ، باعتبار أن هذه اللهجات هي اللغة الحية التي تستعمل في التواصل الطبيعي في المجتمعات الكلامية .

---

(١٥٢) مسند أحمد باقي مسند الأنصار حديث رقم ٢٢٥٦٧ ، موسوعة الحديث الشريف : الكتب التسعة (قرص مدمج) إصدار شركة صخر لبرامج الحاسب ١٩٩٦ ، الإصدار الأول ١,٢ .

(١٥٣) انظر : خالد الأزهري : شرح التصريح على التوضيح ١٤٩/١ ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، د.عبد الغفار حامد هلال : اللهجات العربية نشأة وتطورا ، ص١٨٩

وكثر الكلام منذ ذلك الوقت عن الازدواجية اللغوية التي يعانى منها العرب ، فهم يعيشون بلغة أو بلغات ويطلب منهم أن يتعلموا وأن يكتبوا بلغة أخرى ... ثم أخذ الموضوع بعدا آخر حين ظهرت أفكار تشومسكى عن اللغات الطبيعية خاصة في تأكيده أن اللغة لا تكون طبيعية إلا إذا جسدها المتكلم المثالي في مجتمع متجانس " ، أي أنها تصدر عن القدرة الفطرية عند صاحب اللغة .

ومرة أخرى قال كثيرون إن العربية الفصيحة ليست لغة طبيعية ، إذ لا ينطبق عليها هذا التحديد . "

ثم قال إن " أية لغة لا يمكن أن تكون نمطا واحدا ، وإنما هي تنظيم " متنوعات" متعددة ، منها اللهجة الإقليمية ، واللهجة الاجتماعية ، واللهجات الخاصة ، ومنها المستوى الفصيح على درجات متعددة أيضا .

ولا يتحدث الناس عن الازدواجية إلا إذا كانت الفروق اللغوية فى النوع لا فى الدرجة ، ولا نعرف حتى اليوم لغة من اللغات التى يشير إليها هؤلاء إلا وفيها هذا التنوع ، ولا يتعامل الناس فى الأسواق ويلقون محاضراتهم فى الجامعة بنمط لغوى واحد ، وإنما لهذا نمط ولذاك نمط .

وأنت واجد من الفروق اللهجية في بريطانيا وألمانيا وفرنسا ما تجده في أي قطر عربي ، ولا حديث عن الازدواجية هناك .

وأذكر أن الطبيب غير الإنجليزي إذا أراد أن يعمل في بريطانيا لابد أن يدرس مقررا لغويا عماده لهجة الطبقات الدنيا من المجتمع وبخاصة الطبقة العاملة غير الفنية ، لأن الطبيب يجب أن يفهم شكوى مريضه التي سيعبر عنها بلهجته "الطبيعية" ولا يسعفه المرض أن يضعها في النمط الفصيح العام .

هذه سنة من سنن الله فى ألسنة الناس ، وكذلك العربية لها نمطها الفصيح ولها لهجاتها العربية المتنوعة .

وهذا النمط الفصيح لغة طبيعية كأية لغة طبيعية . وأنت إذا طبقت مبدأ تشومسكى عن المتكلم المستمع المثالي في مجتمع متجانس فانك واجده كذلك في العربية الفصيحة . "

ثم ساق الدليل علي صحة ما ذهب إليه فقال :

" واذهب إلي المسجد يوم الجمعة تر الخطيب يخطب بالفصحى ، وتر عدداً غير قليل من المصلين هم من الأميين الذين لا يعرفون قراءة ولا كتابة ، ومع ذلك يتلقون الخطبة الفصيحة فلا يحتاجون إلي مترجم يترجمها إلي لهجتهم الطبيعية ، بل إنهم يتلقونها تلقياً طبيعياً ويستجيبون لها استجابة طبيعية ، وسوف تجد معظم الذين يسألون الإمام عن جزئيات خطبته أو درسه إنما هم من هؤلاء الأميين ، ولا يسأل فى الجزء إلا من عرف الكل واستجاب له " (١٥٤)

وعلى ذلك فالعربية الفصحى الآن – كما قال د. الراجحى – لغة طبيعية . وهذا ما ذهب إليه أيضا د. ريمون طحان حين قال :

" أخذ – منذ نهاية القرن الماضي – عدد الذين يكتبون العربية يزداد باستمرار ، ثم أصبح عدد الذين يسمعون الفصحى ويفهمونها أكبر بكثير من عدد الذين يقرؤون العربية أو يكتبونها بيسر . ويكفى للتحقق من هذه الظاهرة إحصاء عدد الأميين الذين يستطيعون متابعة المعنى العام لبرنامج إذاعي ، أو لمحاضرة تلقى عليهم ، أو لخطاب يتلى عليهم أو لرسالة تقرأ عليهم .

أصبحت الفصحى شائعة فى أوساط المثقفين يستعملونها فى محادثاتهم العادية ، وكانت لسنين خلون وقفا على دوائر الاستشراق ، وعلى بعض الأفراد الذين كانوا يستعينون بها على مضض كلغة وسيطة للتعامل مع هؤلاء الذين لا يجدون إلا الفصحى ." (١٥٥)

والذي نلاحظه فيما سبق أن د. الراجحى ود. طحان قد اعتمدا في إثبات فكرتهما عن طبيعية اللغة على جانب واحد منها في الغالب هو الاستماع ، وهذا في رأيي جانب مهم في إثبات الفكرة ، لأن ما يقابله وهو الحديث قليل إذا ما قورن بالاستماع .

فإنه يلاحظ أن الإنسان العربي الذي أتيح له قدر من المعرفة اللغوية كبير أو صغير أو حتى الأميّ يمكنه أن يفهم اللغة العربية الفصيحة حين

---

(١٥٤) علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية ص ٨٢ – ٨٥ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢

(١٥٥) د. ريمون طحان ، د. دينيز بيطار طحان : اللغة العربية وتحديات العصر ، ص ٤٦–٤٧ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط٢ ، ١٩٨٤ .

يسمعها وينفعل بها ، وقد أعطى لنا د.الراجحى ود. طحان بعض الأمثلة لهذا .

وأنا أخص بالذكر هنا تلك البيانات الإخبارية (النشرات) التي تُبَث ليل نهار في الإذاعة والتلفاز، والتي ينتظرها الناس بمختلف طبقاتهم وثقافاتهم ، وكذلك الأميون منهم ، وهى لا تُقدَّم إلا باللغة العربية الفصيحة ، ومع ذلك يتأثرون بما فيها وينفعلون بها . بل إن الواحد منهم لا يقنع – في كثير من الأحيان – بواحدة منها ، فيبحث عن غيرها هنا وهناك ، خاصة في هذه الآونة التي انتشرت فيها الأقمار الصناعية بما تقدمه من الإذاعات المسموعة والمرئية .

وقس على هذا كثيرا من البرامج الدينية والسياسية وغيرها التي تُعرَض باللغة العربية الفصيحة ، والتي تجد لها تأثيرا لا يُمكن تجاهله .

ولا أنسى أن أذكّر بتلك الأناشيد الوطنية المُغناة التى كانت تُقدم فى فترات الحروب وكانت تُكتب بالعربية الفصيحة ، وكم كانت تُلهب حماسة الناس ، وتثير فيهم روح الوطنية والفداء .

غير إنني أرى برغم هذا أن هذه الطبيعية في استعمال العربية الفصحى ليست كاملة في الحقيقة لأن اللغة لا تكون طبيعية إلا إذا كان الطرفان يتحدثانها ويسمعانها في الوقت نفسه ، وينفعل كلاهما بالآخر ، وهو ما رأيناه في عبارة تشومسكى السابقة (المتكلم المستمع المثالي في مجتمع متجانس) أما ما استدلا به فهو استعمال طبيعي ناقص ، أو إن شئت فقل هو نصف طبيعي ، لأن أحد الطرفين يتحدث ، والطرف الآخر يستمع فقط .

وعليه فالعربية الفصحى في العصر الحديث تعد في رأيي لغة نصف طبيعية ، وهذا في غالب استعمالها ، أما أن تستعمل استعمالا طبيعيا كاملا فهذا هو القليل الذي يحدث في أوساط المثقفين .

******

وإننا إذا أردنا الموضوعية فى البحث فلابد أن نعترف بأن العربية الآن لغة مثل كل اللغات لها مستويات فصيحة ، ولها مستويات أخرى عامية ، والحقيقة أن الفصحى غالبا ما تكون موضع الاهتمام فى هذه اللغات – كما

كانت العربية كذلك- يقول جورج يول فى حديثه عن اللغة الإنجليزية الفصحى:

" عندما درسنا أصوات اللغة الإنجليزية وكلماتها وجملها ، فإننا في الحقيقة قد ركزنا على ملامح تنوع واحد فقط ، يسمى عادة باللغة الإنجليزية الفصحى ، هذا التنوع الذي يشكل الأساس الذي تقوم عليه الإنجليزية المطبوعة في الصحف والكتب ، والتي تستعمل على نطاق واسع وتدرس بالمدارس ، وهو أيضا التنوع الذي نحاول عادة تدريسه لهؤلاء الذين يريدون تعلم اللغة الإنجليزية بوصفها لغة ثانية " (١٥٦)

ويقول جون ليونز :

" وكما كلف النحاة التقليديون بدراسة اللغة المكتوبة كلفوا أيضا بصورة أو بأخرى

باللغة الأدبية أو اللغة الفصحى standard language ، وكانوا يميلون إلى إهمال أي خروج على هذه اللغة وإدانته ، سواء في الكلام أو الكتابة ، ووصمه بأنه عامي أو غير صحيح ، ومن ثم لم يستطيعوا إدراك أن اللغة الفصحى تاريخيا ما هي إلا لهجة إقليمية regional dialect أو لهجة اجتماعية social dialect اكتسبت مستوى معينا بحيث أصبحت لغة الإدارة والتعليم والآداب ، نتيجة لانتشارها الواسع بين عدد كبير من الناس.

حقا قد تكون تلك اللغة الفصحى غنية بثرواتها اللفظية vocabulary أكثر من أي لهجة أخرى تعيش بجوارها ، ولكنها ليست بالضرورة أكثر اللهجات الموجودة صحة ، لأن الفرق بين اللغة واللهجة كثيرا ما يقوم على أسس سياسية .... " (١٥٧)

وهكذا يبدو اهتمام اللغويين -عامة - باللغة الفصحى واضحا ، وإن كان هذا الاتجاه لا يؤيده علماء اللغة المحدثون الآن ، حيث يرون ضرورة

---

(١٥٦) The Study of language, (Chapter20 Cambridge language varieties), P 226 university press1985

(١٥٧) نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د. حلمى خليل ، ص ٤٥ .

الاهـتمام بالاسـتعمال العـادي اليومـي للغة كما أشار إلى ذلك من قبل د. الراجحى ، وهو ما صرح به تشومسكى حين قال :

" وينبغـى أن نلاحـظ أننـي لست مهتما هنا باستعمال اللغة الذي له قيمة جمالـية حقيقية ، أي ذلك الذي نسميه إبداعا حقيقيا ، كما يتمثل في إبداع شـاعر مجـيد ، أو روائـي أو كاتب موهوب ، أما الذي أهتم به هنا فشئ عـادى جدا ، أي الاستعمال العادي اليومي للغة بما يصاحبه من خصائصها المميـزة كالجدة والحرية من تحكم المثيرات الخارجية أو الحالات الداخلية والانسـجام وملاءمـة المقامـات وقدرتها على إثارة الأفكار الملائمة لدى السامع " (١٥٨)

ومهما يكن من أمر ، فإن اهتمامنا بلغتنا الفصحى أمر واجب ، ونحن فـي هـذا كغيرنا من أصحاب اللغات الأخرى الذين " حاولوا أن ينشروا بين الناس الاتجاه إلى الفصحى ونبذ العاميات ؛ لأن في الفصحى ما يحافظ على كـيانهم الحضـاري والأدبي ، فهم يحافظون على الفصحى من لغاتهم حتى يسـتطيعوا أن يحافظوا على وحدتهم الثقافية والقومية ، فإن تلك اللغات قد وعـت لهـم تـاريخ أجـيال وحضارات مضت ... أما لو اتجه الناس إلى العامـيات فسـوف تصـرفهم عن تراثهم ، وتمزق وحدتهم ، وتقضى على آمـالهم فـي المسـتقبل ، ولذلك حذر العلماء هناك من استعمال العاميات ، وطلبوا من مجتمعاتهم أن يحافظوا على فصحاهم ، بل حاولوا ومعهم الحكام ابتكار الطرق والوسائل التي تؤدى إلى منع انتشار العاميات ." (١٥٩)

وعلـى ذلك ينبغي أن نعمل من أجل الحفاظ على لغتنا العربية في هذا العصـر ، لا نهدرها بتشجيع العاميات ، ونعمل من أجل بقائها حية بيننا ما اسـتطعنا ، ونحن في أثناء ذلك لا ننظر إليها - كما قال بعض الباحثين - علـى أنهـا لغة العبقرية ، أو عبقرية اللغات ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية

---

(١٥٨) اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة د. حمزة بن بقلان المزينى ،ص ١٢١ ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٠

(١٥٩) د. عـبد الغفـار حامد هلال : اللهجات العربية نشأة وتطورا ص ٣٨٨ - ٣٨٩

وعامل حضاري [١٦٠] ، فنقف أمامها جامدين مشدودين إلى الماضي ، وإنما نفجر طاقاتها ، فنكتشف ونولد منها ما يجعلها قادرة على البقاء .

وهى بلا شك قادرة على البقاء بما تمتلكه من مقومات تتمثل في " دقة قواعدها النحوية ، وغزارة مفرداتها ، وخصب مناهجها في الاشتقاق ، وقياسية أوزانها ، واختصاص كثير من هذه الأوزان بالدلالة على معان معينة ، وسعة صدرها حيال التعريب والمجاز والكناية والنقل ، وشدة حرصها على جمال الأسلوب وبلاغة العبارة وتوخيها الوصول إلى الغرض من أقرب الطرق وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال " [١٦١] .

والعربية – فضلا عن كونها لغة التراث العربي والإسلامي – من أهم عوامل توحيد العقلية العربية خاصة والثقافة الإسلامية عامة .

ولله در حافظ إذ يقول على لسان اللغة العربية :

وسعتُ كتابَ الله لفظا وغايةً ... وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ... وفيكم وإن عز الدواء أساتى

*****

(١٦٠) د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ٣٥٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ١٣ ، ١٩٩٧

(١٦١) د. على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ص ٢٤٤

الخاتمـــة

عرضـت فـي هـذا البحث لفكرة ترددت في كتابات غير قليل من الباحثـين ، وهـى أن العربية الفصحى لم تكن سوى لغة أدبية نموذجية أو لغـة فنـية تصـب فـيها القوالب الأدبية شعرا ونثرا ، ولم تكن لغة حية مـنطوقة ، تجرى على ألسنة الناس في محاوراتهم ومختلف شؤونهم ، أي لم تكن لغة طبيعية وفق مفهوم علماء اللغة المحدثين كما سبق أن ذكرت ، كما ادعى بعضهم فقال : إنها لغة مصنوعة صنعها النحاة والشعراء .

والحـق أن الـذي روج لهذه الفكرة كان من المستشرقين ، وتبعهم بعـض الباحثين من العرب في ترديدها ، أو ترديد بعض مضامينها بأساليب مخـتلفة وفـى سياقات شتى ، وكأن هذه الفكرة الغريبة قد صارت أمرا من الأمـور المقررة في ميدان البحث في اللغة العربية الفصحى وتاريخها ، فلم تلق من البحث والتمحيص ما يتناسب مع أهميتها وخطورتها ، ومن ثم فقد قمـت بعمل هذا البحث مناقشا ومفسرا ومستدلا بالأدلة المناسبة على خطأ تلك الفكرة وبيان وجه الصواب فيها كما أراه .

هذا وأستطيع أن أجمل أهم النتائج التى توصل إليها هذا البحث فيما يأتى :

أولا :

أن هـذه الفكرة كانت امتدادا لكثير من الأفكار الأخرى التي أشاعها بعـض الباحثـين من المستشرقين والعرب جميعا، مثل ضعف اللغة العربية وتخلفها وعجزها عن مواكبة روح العصر ، واتهامها بأنها لا تصلح إلا أن تكون لغة القوالب الأدبية إلى آخر هذه الأفكار التي ناقشها من قبل كثير من الباحثين الجادين الغيورين على هذه اللغة .

******

ثانيا:

أن هـذه الفكرة لم تنل حظها من الدراسة العلمية الموضوعية على الرغم من خطورة آثارها ، وأهم هذه الآثار ما يلي :

١- أنهـا تثيـر الشـك فـيما بين أيدينا من اللغة النثرية التي تمثل الحياة العربية الطبيعية بمختلف مواقفها وصورها ، والتي قدمها لنا علماء العربية

من اللغويين والمفسرين والبلاغيين والأصوليين وغيرهم فيما لا يحصى من النصوص .

٢- أنها تبعث على الريبة فى الرواة والنقلة الذين أخذت عنهم هذه اللغة ، وهذا أمر خطير جدا .

٣- أنها تجعلنا لا نطمئن ونحن نقرأ فى علوم ارتكزت على هذه اللغة ، كتفاسير القرآن وشروح الحديث النبوي ، وكتب الفقه وأصوله ، والبلاغة وعلومها ، وعلوم القرآن ، وعلوم اللغة من نحو وصرف ومعاجم ... وغير ذلك ، فإن هذه المؤلفات كلها احتكمت إلى هذه اللغة النثرية في عرض مادتها ، فإذا نحن فقدنا الثقة في هذا كله فقد فقدنا الثقة في جزء كبير من تراثنا العربي والإسلامي ، مما يجعلنا نشعر بأن أهدافها غير علمية ، وأن وراءها ميولا وأهواء خفية .

******

ثالثا :

أن اللغة العربية الفصحى كانت لغة طبيعية وليست اصطناعية أو مصنوعة كما ادعى هؤلاء الباحثون ، وذلك بالاعتماد على الأدلة التالية :

١- *الحديث النبوي :*

فقد أخذته دليلا على أن العربية الفصحى كانت هي اللغة التي كانت مستعملة بين الناس ، إذ استشهدت بنصوص من كلامه صلى الله عليه وسلم في مواقف طبيعية كثيرة ، ولم أنس أن أشير إلى أهمية النظر في أثناء ذلك إلى لغة الرواة لهذه الأحاديث ، وما فيها من حوارات تدل على أنها كانت لغة منطوقة حية تجرى في سياقات طبيعية .

٢- *السماع :*

فهو أصل مهم من أصول النظر العلمي في اللغة ، وذلك أن رواة اللغة جميعا كانوا يلتقون بالأعراب ، ويأخذون عنهم اللغة شفاهة ، وقد نقلت كثيرا من الأمثلة التي تدل على احتفائهم بالسماع عن العرب ، وبخاصة في لغتهم النثرية التي تجرى في مواقف طبيعية ، وذلك على اختلاف هؤلاء اللغويين في الأزمنة والأمكنة والانتماءات المذهبية ، كما

خصصت بالذكر بعض المؤلفات التي اهتمت بلغة الناس على وجه الخصوص كالزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنبارى ، والفاخر للمفضل بن سلمة ، ومن ثم فقد كان السماع بهذا التصور دليلا قاطعا أيضا على أن العربية الفصحى كانت لغة طبيعية .

٣- *التنبه إلى اللحن والتصدى له من قبل الفصحاء والعلماء :*

فقد وردت أخبار كثيرة في سياقات شتى عن وقوع اللحن في نطق العربية ، وعن تنبه الفصحاء والعلماء له ، ومحاولاتهم المخلصة في سبيل تنقية اللغة منه ، وقد عنيت هنا بالاستشهاد ببعض الكتب التي اهتمت ببيان لحن العامة من العرب ، أي في لغتهم النثرية الطبيعية ، وليس في اللغة الأدبية شعرها ونثرها ، مثل :

* البهاء فيما تلحن فيه العامة للفراء
* ما يلحن فيه العامة للأصمعي
* لحن العامة لأبى حنيفة الدينورى
* تقويم اللسان لابن الجوزى

وغيرها من الكتب التي وصلت إلينا أو التي لم تصل ، فهذا يدل على أن العربية الفصحى كانت هي الأساس في لغة الناس ، وإلا ما شغل اللحن بال هؤلاء الفصحاء والعلماء ، فنبهوا عليه ، وحذروا منه ، وجدوا في تصحيحه وتنقية العربية منه .

٤- *دليل عقلى :*

وهو أن الله عز وجل وصف القرآن فى كثير من آياته بأنه عربي ، وأن الله قد تحدى به العرب – فضلا عن غيرهم – ومعلوم أن التحدي إنما يكون فيما يستطيعه المُتَحَدَّى فإذا أضفنا إلى ذلك أن التحدي بالقرآن كان للعرب كافة ، وليس للشعراء والبلغاء خاصة ، فإننا نصل إلى نتيجة : هي أن العربية الفصحى كانت لغة مستعملة عند العرب جميعا وفى مختلف شؤونهم ، وليس كما زعموا أنها كانت لغة القوالب الفنية والأدبية التي لا يملكها إلا الشعراء والبلغاء .

رابعا :

أثيرت بعض الأفكار الفرعية التي ذكرها هؤلاء الباحثون فى أثناء حديثهم ، فحاولت مناقشتها والرد عليها ، وهى :

* خلو اللغة الفصحى وخاصة الشعر من اللهجات المحلية .

حيث رفضت أن آخذ بقول الأستاذ أحمد أمين - في محاولته الدفاع عن ذلك - إن الـرواة ربما غيروا بعض الألفاظ لتتفق مع اللغة النموذجية ، وقلت : إن فـي هـذا اتهاما للرواة والنقلة لا يليق بقدرهم ومكانتهم ، وأن الأفضل القـول بأن للغة الشعر طبيعة خاصة تختلف عن لغة النثر ، فالشعر يتطلب أن ينحّى الشاعر أحيانا من لغته بعض الخصائص اللغوية التي يستعملها فى غير الشعر ، والتي هي أيضا جزء لا ينفصل من اللغة العربية الفصحى .

* فكرة السليقة اللغوية ، وتعارضها مع اللحن فى اللغة .

فقـد ذكرت أن وقوع اللحن في اللغة الفصحى لا يجعلنا نحكم بأنها لـم تكـن لغة سليقة للعربي ، لأن صاحب السليقة اللغوية قد يزل أو يخطئ فـي حديثه دون أن يشعر في كثير من الأحيان ، ولو نظر كل واحد منا إلي نفسـه أو إلى غيره في أثناء حديثه باللغة العامية ، وهى سليقة - بلا شك - فسـيجد أنـه يخطئ دون أن يدرك ، فلماذا نستبعد ذلك وننكره على أهل العربية .

* الاحتجاج بوقوع اللحن فى شعر بعض الفحول على الفكرة نفسها .

فقد رأيت أن ما عدَّه بعض اللغويين لحنا في شعر بعض الفحول - وهـم الحجـة على اللغة - لا يجعلنا نحكم عليهم بأن لغتهم العربية لم تكن لغـة سـليقة لهـم ، وإنما يمكن لنا أن نعد ذلك تساهلا منهم وترخصا في استعمال العلامة الإعرابية لوضوح المعنى وأمن اللبس كما قال النحويون ، واستشـهدت على رأيي هذا بغير قليل من اللغة ؛ قرآنا وشعرا ونثرا ، وهو ما أقره النحويون في كثير من أبواب النحو .

* الشـك فـي وجـود الإعراب في اللغة الفصحى ، وأن قواعده من صنع النحاة .

أمـا هـذا الافتـراء البـين فقـد تـركت الرد عليه لبعض المنصفين من المستشرقين أنفسهم الذين فندوه بالأدلة الدامغة على بطلانه .

******

خامسا :

عرضت للجزء المتبقي من هذه القضية وهو الإجابة على السؤال الآتي :

هـل العـربية الفصحى- أو الفصيحة على الأقل - مازالت لغة طبيعية فى العصر الحديث ؟

حـيث ذكـرت رأى بعض الباحثين الذين رأوا أن العربية في هذا العصر لا تـزال تتصـف بصـفة الطبيعية ، واستدلوا على ذلك ببعض الأدلة كخطبة الجمعة ، وبعض البرامج الإذاعية ، مما يتحقق فيه – بقدر ما – الاستعمال الطبيعـي للغـة الفصـحى بـين طرفين ، أحدهما يتكلم والآخر يستمع إليه وينفعل به في الوقت نفسه .

وقد رأيت أن هذه الطبيعية في استعمال العربية الفصحى ليست كاملة فـي الحقـيقة لأن اللغـة لا تكـون طبيعـية إلا إذا كان الطرفان يتحدثانها ويسـمعانها فـي الـوقت نفسه ، وأما ما استدلوا به فهو استعمال طبيعي ناقص ، لأن أحد الطرفين يتحدث ، والطرف الآخر يستمع فقط .

وعليه فالعربية الفصحى في العصر الحديث تعد في رأيي لغة نصف طبيعية إن جـاز هذا التعبير ، وهذا في غالب استعمالها ، أما استعمالها الاستعمال الطبيعي الكامل فلا يحدث إلا قليلا وذلك في أوساط المثقفين .

******

سادسا :

ذكـرت أن الموضوعية تقتضي منا الاعتراف بأن العربية الفصحى مـثل غيـرها مـن اللغات ؛ لها مستويات فصيحة ، ولها مستويات أخرى عامـية ، ولكـن ينبغي أن تكون الفصحى موضع الاهتمام ، فنعمل من أجل الحفـاظ علـيها، و لا نهدرها بإهمالها وبتشجيع العاميات ، ونعمل من أجل بقائها حية بيننا ما استطعنا ، لأنها تملك الكثير من مقومات البقاء ما يفوق غيرها من اللغات .

وأنـي أرجـو وآمل أن تنهض هذه اللغة من جديد لتأخذ مكانها اللائق بين أهلهـا ، وليس هذا ببعيد ما وُجد المخلصون الغيورون عليها ، الباحثون بحق عن أصولهم وتراثهم .

المصـــــادر والمــراجع

أولا :- المصادر والمراجع العربيـــة

إبراهيم أنيس (دكتور)

١- فـــي اللهجـــات العـــربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٩٠.

٢- مـــن أســـرار اللغـــة ، مكتـــبة الأنجلـــو المصـــرية ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٩٤.

أحمد بن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني الوائلي ت ٢٤١ هـ)

٣- مسند أحمد ، ضمن موسوعـــة الحديث الشريف : الكتب التسعة (قرص مدمج) إصدار شركة صخر لبرامج الحاسب١٩٩٦ ، الإصدار الأول ١,٢

أحمد أميـــــن

٤- ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨

أحمد مختار عمر (دكتور)

٥- البحث اللغوي عند العرب ، عالم الكتب ، القاهرة١٩٩٧

الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخى المجاشعى . ت ٢١٥ هـ)

٦- معانـــي القـــرآن ، تحقيق: د.عبد الأمير محمد أمين الورد،عالم الكتب بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥

الأشمونى (نور الدين على بن محمد . ت ٩٠٠ هـ) .

٧- شرح ألفية بن مالك المسمى بمنهج السالك إلى ألفية بن مالك ، مطبوع أعلى حاشية الصبان وشرح الشواهد للعيني ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة د. ط ، د. ت .

ابـــن الأنـــبـــارى (كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ،المتوفى سنة ٥٧٧ هـ)

٨- البـــيان فـــي غريب إعراب القرآن ، تحقيق: د. طه عبد الحميد طه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١ ، ١٩٨٠ م

٩- الزاهـــر في معاني كلمات الناس ٤/١ ، تحقيق: د. حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٨ .

١٠- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ١٩٩٨

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦)

١١- صحيح البخاري ،مجلس الشؤون الإسلامية ،القاهرة ط٤ ، ١٩٩٨ .

البغدادي (عبد القادر بن عمر بن بايزيد بن الحاج أحمد ،ت ١٠٩٣ هـ)

١٢- خزانة الأدب ، ولب لباب لسان العرب ، تحقيق: عبد السلام هارون ، الخانجى ، القاهرة ط. الثالثة ١٩٨٩ .

الترمذى (أبو عيسى محمد بن عيسى ، ت ٢٧٩)

١٣- سنن الترمذى ، مع شرحه "تحفة الأحوذى" للمباركفورى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط٣، ١٩٨٤ .

تشومسكى ، نعوم

١٤- اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة د. حمزة بن بقلان المزينى ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ط١ ، ١٩٩٠ .

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى ، المتوفى سن ٢٩١ هـ) .

١٥- مجالس ثعلب ، شرح و تحقيق:عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ط١ ، ١٩٤٨ .

ابن الجزرى (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ، ت ٨٣٣هـ) .

١٦- النشر في القراءات العشر٢/١٩١ دار الكتب العلمية ط١، ١٩٩٨ .

الجمحى (أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم ، ت ٢٣١ هـ)

١٧- طبقات فحول الشعراء ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤.

ابن جنى (أبو الفتح عثمان ، ت ٣٩٢ هـ) .

١٨- الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٩

١٩- المحتسب ، تحقيق: على النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبى ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٩

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ، ت ٥٩٧ هـ)

٢٠- تقويم اللسان ، تحقيق: د . عبد العزيز مطر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ،١٩٨٣ .

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطينية الرومي ، ت١٠٦٧ هـ)

٢١- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ،

بيروت ١٩٩٢ .

حلمي خليـــل (دكتور)

٢٢- العـــربية وعلم اللغة البنيوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٨م .

أبو حيـــان الأندلسي (أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف ، ت ٧٤٥ هـــ) .

٢٣- تفســـير البحر المحيط ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض ود. زكريا النوتي ود. أحمد النجولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣ .

خالد الأزهري (زين الدين خالد بن عبد الله بن أبى بكر،ت ٩٠٥ هـــ) .

٢٤- شرح التصريح على التوضيح ، وبهامشه حاشية يس بن زين الدين ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، د . ط ، د . ت .

خديجة الحديثى (دكتور)

٢٥- دراسات فى كتاب سيبويه ، مكتبة غريب ، القاهرة د.ط، د.ت

الخليل بن أحمد (أبـــو عبد الرحمن بـــن أحمد بن عمرو الفراهيدى، ت ١٧٠ هـــ)

٢٦- معجم العين ، تحقيق : د. مهدى المخزومى ود. إبراهيم السامرائى ، العراق ١٩٨٠.

الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد ، ت ٤٤٤ هـــ) .

٢٧- التيسير في القراءات السبع ، نشر أوتو يرتزل ، دار الكتب العلمية، بيـــروت ، ط. ١ ١٩٩٦

رمضان عبد التواب (دكتـــور)

٢٨- فصول في فقه العربية ، الخانجى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٣

الزُبَيْدِى (أبو بكر محمد بن الحسن ، ت ٣٧٩ هـــ) .

٢٩- طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣ .

الزجاج (أبو إسحاق ابراهيم بن السري ، ت ٣١١ هـــ) .

٣٠- إعـراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، تحقيق: إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط. الثالثة ١٩٨٦ .

الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ، ت ٣٣٧هـ) .

٣١- الإيضـاح في علل النحو ، تحقيق: د. مازن المبارك ، دار النفائس ، بيـروت ط ٥ ، ١٩٨٦ .

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، ت ١٨٠ هـ) .

٣٢- الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الخانجى ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٨ .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ، ت ٩١١ هـ) .

٣٣- الاقتـراح فـي علم أصول النحو ، تحقيق: د. أحمد محمد قاسم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦.

٣٤- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت ، ١٩٦٤ .

٣٥- المزهـر في علوم اللغة ، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى ، محمـد أبـو الفضـل إبراهيم ، على البجاوى ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٨٧.

٣٦- همع الهوامع ، تحقيق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ، ١٩٩٨.

صبحي الصالح (دكتور)

٣٧- دراسات في فقه اللغة،دار العلم للملايين ، بيروت ط ١٣ ، ١٩٩٧.

طاهر سليمان حمودة (دكتور)

٣٨- القياس في الدرس اللغوي ، الدار الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢.

أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن على ، ت ٣٥١ هـ) .

٣٩- مـراتب النحويين ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط.٢ ، ١٩٧٤.

عبد الغفار حامد هلال (دكتور)

٤٠- اللهجات العربية نشأة وتطورا ،مكتبة وهبة ، القاهرة ط٢ ، ١٩٩٣.

عبد المجيد عابدين (دكتور)

٤١- المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة د.ط، د.ت .

عبده الراجحى (دكتور)

٤٢- علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية ص ٨٢ - ٨٥ ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٢ .

٤٣- اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، دار المعارف ،القاهرة ١٩٦٨

أبو عبيدة (معمر بن المثنى التيمى ، ت ٢١٠ هـ) .

٤٤- مجاز القرآن ، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين ، الخانجى ، القاهرة ١٩٥٤

العكبرى (أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، ت ٦١٦ هـ)

٤٥- إعراب القراءات الشواذ ، تحقيق: محمد السيد عزوز ، عالم الكتب ، القاهرة ط١ ، ١٩٩٦

٤٦- التبيان في إعراب القرآن ،المكتبة التوفيقية ،القاهرة ،ط. ١،١٩٧٩.

على عبد الواحد وافي (دكتور)

٤٧- فقه اللغة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٨

الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) .

٤٨- معاني القرآن ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي و محمد على النجار ود.عبد الفتاح شلبى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط. الأولى ١٩٥٥ .

فك ، يوهان

٤٩- العربية ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، الخانجى ، القاهرة ١٩٨٠

فندريس

٥٠- اللغة ، تعريب د. عبد الحميد الدواخلى ، ود. محمد القصاص ، القاهرة ، ١٩٥٠

القالي (أبو على إسماعيل بن القاسم ، البغدادي ، ت ٣٥٦ هـ) .

٥١- الأمالى ، تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥.

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ت ٦٧١ هـ)

٥٢- الجامع لأحكام القرآن ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ د. ط .

القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ، ت ٦٤٦ هـ) .

٥٣- إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/٢٥٦ ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ط١ ، ١٩٨٦ .

لوبون ، جوستاف

٥٤- حضارة العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠

ليونز جون

٥٥- نظرية تشومسكى اللغوية ، ترجمة د. حامى خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ، ت ٢٨٥ هـ) .

٥٦- الكامل فى اللغة والأدب ، كتب هوامشه نعيم زرزور وتغاريد بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط.١ ١٩٨٧ .

٥٧- المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩

محمد حسن باكلا (دكتور) وآخرون

٥٨-معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، مكتبة لبنان ط١ ، ١٩٨٣ .

محمد حسن عبد العزيز (دكتور)

٥٩- مدخل إلى اللغة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨

محمد عيد (دكتور)

٦٠- الاستشهاد والاحتجاج باللغة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ١٩٨٨

المرزبانى (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى ،ت ٣٨٤ هـ) .

٦١- الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق : على البجاوى ، نهضة مصر ، القاهرة ، د . ط ، د . ت

مسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، ت ٢٦١ هـ) .

٦٢- صحيح مسلم ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٩٥٥ .

المفضل بن سلمة بن عاصم أبو طالب ، ت ٢٩٠ هـ

٦٣- الفاخر ، تحقيق: عبد العليم الطحاوى ومحمد على النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

مكى بن أبى طالب القيسى ، ت ٤٣٧ هـ .

٦٤- مشكل إعراب القرآن ، تحقيق: د.حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣. ١٩٨٧ .

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ) .

٦٥- لسان العرب ، تحقيق : عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٦ د . ط .

النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن بحر ، ت ٣٠٣ هـ)

٦٦- سنن النسائي ، مع شرحه للسيوطى وحاشية السندى ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

نفوسة زكريا (دكتور)

٦٧- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر ، الإسكندرية ١٩٦٤

ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ، ت ٧٦١ هـ) .

٦٨- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ،المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٩١ د . ط .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك المعافرى ، ت ٢١٣)

٦٩- السيرة النبوية ، (مختصر السيرة النبوية) ، مجلس الشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٧ .

ولفنسون ، إسرائيل

٧٠- تاريخ اللغات السامية ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ط١ ١٩٢٩

ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن على بن يعيش ، ت ٦٤٣ هـ) .

٧١- شرح المفصل للزمخشرى ، مكتبة المتنبي ،القاهرة د . ط ، د . ت .

*****

ثانيا :- الدوريات :

تمام حسان (دكتور)

٧٢- التراث اللغوي العربي ، مقال منشور بمجلة فصول مج ١ ، عدد ١ ، أكتوبر ١٩٨٠

******

ثالثا :- المراجع الأجنبية

Crystal , David

73 - The Cambridge encyclopedia of language, Cambridge university press1987.

Hartmann and F . C . Stork,

74 - Dictionary of language and linguistics, the language centers , universities of Noringam and sheffield .

Yule, George

75 - The Study of language ، Cambridge university press1985 .

*****

Summary in 200 wards

This research, entitled "Is the standard Arabic a natural Language ? " aims to discuss an issue raised by many researchers; Arabs as well as Orientalists. This issue is based on the claim that the standard Arabic was an ideal language for literature but never a vivid spoken language used by people in their daily discourses and different affairs. In other words, it was never a natural language according to recent linguists.

The research consists of the following study fields:

1. Definition of the term natural Language and its opposite term artificial Language .
2. My five evidences that refute such claims; first, the prophet's saying, second, hearing from the Arabic language native speakers; third, highlighting certain language distortions or errors to purify the language from them; fourth, a logical evidence that can be summarized in the fact that Allah describes the Quran of being Arabic, moreover, He (Allah) challenges all Arabs, not just poets or eloquent people, to come up with one like it. Therefore the Arabic language was the language of all Arabs used n their various affairs. It was not, as they claimed, a literary language used by poets and eloquent people.

3. I refuted the following claims related to the above mentioned idea;
    - The Arabic language has no local dialects, the idea of language disposition, an argument that contradicts language distortions,
    - The plea that there are language distortions in the poetry of the master poets
    - The argument that there is no "I'rab" (using of signs to utter words correctly) in the standard Arabic and that its grammatical rules are but the invention of linguists.

I then concluded that the standard Arabic was a natural vivid spoken language; it was not a literary language as was claimed before, though there are no dialects since dialects are but part of the standard Arabic.

5. I stated what can be considered to be the answer to the following question:

Is the standard Arabic- or at least the eloquent one- a natural language nowadays? I referred to the opinions of a number of researchers that it is still so as well as their evidences and my own opinion that it is half- natural if I could say so.

6. Finally, I called for more attention to be paid to the standard Arabic and for protecting and supporting it with all possible means.